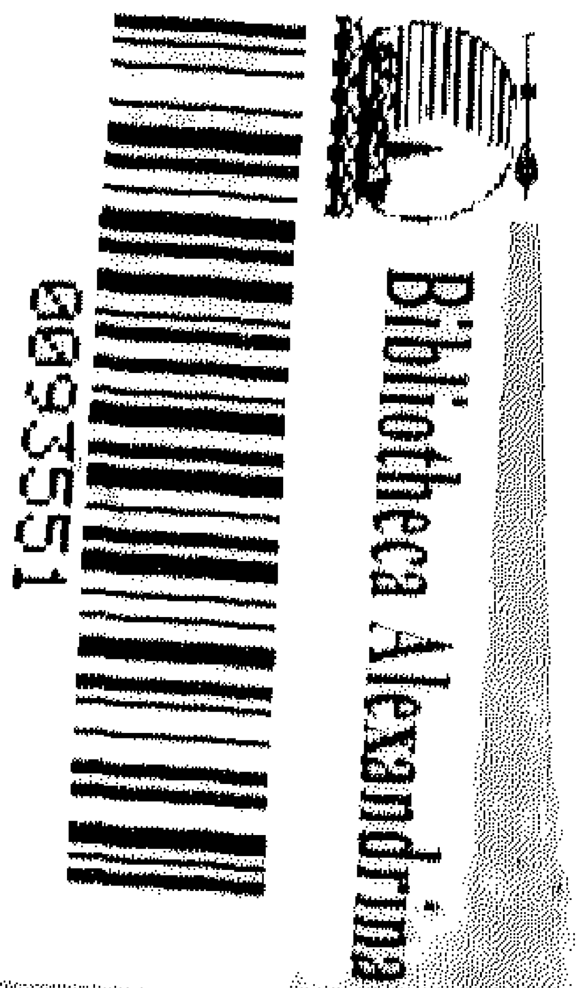
الإيمان

أركانه - حقيقته - نواقضه

تأليف
الدكتور محمد نعيم ياسين





دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع

كتاب

الإيمان

أركانه - حقيقته - نواقضه

تأليف

الدكتور / محمد نعيم ياسين

دار عمر بن الخطاب
طبع - نشر - توزيع
الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم
فاتحـــة

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـــد

فان أصل الفساد مخالفة الحق ، وتنكب طريقة ، وصلاح الأمر كله في اتباع الحق والتزام طريقه ، والحق هو الوضع الثابت الذى خلق الله عليه مخلوقاته . أو أرادها أن تكون عليه . ذلك أنه ليس من مخلوق في الدنيا الا وخلقه الله وحده . لم يشاركه أحد فى خلقه . وليس من مخلوق في الدنيا الا وجعله الله سبحانه وتعالى على وضع معين . ودبر أمره بكيفية معينه . والله سبحانه وتعالى كامل منزه عن الخطأ : فالصلاح كله في خلقه وتدبيره . وكل شيُ يحول عن الوضع الالهى والتدبير الربانى يفسد : فهذه السموات والارض خلقهما الله بالحق ، ودبر أمرهما بحكمته ، فصلحتا بخلقه وتدبيره سبحانه :(**لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴿٩﴾**)[1]

والانسان مخلوق من مخلوقات الله عز وجل . وصلاح حياته مرهون بمعرفة الحق واتباعه . وفسادها نتيجة محتومة لجهله بالحق . أو تمرده عليه وان عرفه . ولما كان لله سبحانه هو الحق ، ومنه الحق وامره وتدبيره هو الحق . فان سبب فساد الحياة البشرية كلها هو الكفر بالخالق . والكفر بأمره وتدبيره . وبما أنزل من الحق . وسبب صلاح هذه الحياة كلها هو الايمان بالله عز وجل ، وبما نزل منه ، والالتزام بارادته وأمره في اوضاع الانسان كلها . ولذلك قال عز من قائل :(**فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيام أعمى**)[2] ولا يتبع هداه الا من آمن به . وذكره . واستشعر وجوده . وصفاته ، وعظمته سبحانه ومن نسى ذر الله أعرض عن هداه ، والانسان ممتحن فى هده الدنيا بهذين الامرين : ذكر الله واتباع هداه . أو نسيانه والضلال ، فهو على مفرق طريقين لاثالث لهما :

(١) الانبياء الآية ٢٢

(٢) طــه الايات ١٣٢ ١٢٤

طريق الايمان والهدى والسعادة في الدنيا والاخرة ، وطريق الكفر والضلال والشقاء في الدارين .

لذا كان اشرف مايتعلمه الانسان ، ويعلمهمه لغيره أمور الايمان وأركانه ومقتضياته وأحوط مايحتاط ويتسلح به معرفة معالم الكفر ، وأسبابه ، ومقتضياته.، فان كان على بصيرة من هذين الامرين الخطيرين ، عرف الانسان طريق سعادته ، فالتزمه، ولم يحد عنه ، وطريق شقائه ، فاجتنبه

وفى هذا الكتاب نرجو أن نوضح – بما يمن الله علينا من العلم ، ويفتح علينا من الحق – أمور الايمان وأركانه ، ومعالم الكفر ، واسبابه ، ومداخله ، والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب : فما أصبنا فيه الحق ، فهو من الحق جل وعلا ، وما أخطأنا فهو من أنفسنا ومن الشيطان ، ونتضرع الى الله ان يغفره لنا ، ويسخر من عباده الصالحين من يصوبه ويبين الحق فيه .

هذا ونجعل هذا الكتاب في قسمين اثنين :

الاول : ونتناول فيه أركان الايمان ، وحقيقته .

الثانى : ونتناول فيه أسباب الكفر ومداخله

القســم الاول
فــي
أركـــان الايمـــان

قال الله عز وجل :(آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير)البقرة – ٢٨٥

وقال سبحانه وتعالى :(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ، فقد ضل ضلالا بعيد) النساء – ١٣٦

وقال أيضا : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين) البقرة – ١٧٧

وفى حديث جبريل المشهور ،حين جاء الى النبى ﷺ في صورة اعرابي يسأله عن الاسلام والايمان والاحسان ، قال ﷺ عن الايمان :(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١)

فهذه الامور الستة هى أركان الايمان ، وهى الاصول التى بعث بها الرسل عليه صلوات الله وسلامه ، ونزلت بها الكتب . ولايتم ايمان احد الا اذا آمن بها جميعا ، على الوجه الذى دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن جحد شيئا منه خرج عن دائرة الايمان وصار من الكافرين .

(١) رواه الامام مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه – انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧ ، وأخرج البخارى نحوه عن أبي هريرة رضى الله عنه – انظر البخارى مع فتح البارى ج١ ص ٩٧،٩٦

الايمان بالله عز وجـــل

والايمان بالله عز وجل معناه الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه ، وانه الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبادة : من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع ، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها ، المنزه عن كل نقص .

فالايمان بالله سبحانه يتضمن توحيده فى ثلاثة : فى ربوبيته ، وفي الوهيته ، وفي أسمائه وصفاته ، ومعنى توحيده في هذه الامور اعتقاد تفرده سبحانه بالربوبيه والالوهية ، وصفات الكمال وأسماء الجلال : فلا يكون العبد مؤمنا بالله حتى يعتقد أن الله رب كل شئ ولارب غيره ، واله كل شيء ولا اله غيره ، وانه الكامل في صفاته واسمائه ، ولا كامل غيره .

فهذه ثلاثة أنواع من التوحيد تدخل في معنى الايمان بالله عز وجل [1] وفيما يلي تفصيل الكلام فى كل نوع منها :

النوع الاول : توحيد الربوبية :

ومعناه الاجمالى الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شئ ولا رب غيره .

وبيانه : ان الرب فى اللغة هو المالك المدبر [2] وربوبيه الله على خلقه تعنى تفرده سبحانه فى خلقهم وملكهم وتدبير شؤونهم . فتوحيد الله في الربوبية هو الاقرار بأنه سبحانه وحده خالق الخلق ، ومالكهم ، ومحييهم ومميتهم ، ونافعهم وضارهم ، مجيب دعائهم عند الاضطرار ، والقادر عليهم ، ومعطيهم ومانعهم ، وله الخلق ، وله الامر كله ، كما قال سبحانه عن نفسه :(**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**) [3]

ويدخل في هذا التوحيد الايمان بقدر الله سبحانه : أى الايمان بأن كل محدث صادر عن علم الله عز وجل وارادته وقدرته [4]

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦ وتيسير العزيز الحميد ص ١٧ والروضة الندية ص ٩ نقلا عن مدارج السالكين . وقد اعاد بعض العلماء هذه الانواع الثلاثة للتوحيد الى نوعين : نوع فى العلم والاعتقاد ويدخل فيه توحيد الله فى الربوبية وتوحيده فى الاسماء والصفات ، ونوع فى الارادة والقصد ، وهو توحيدالله فى الوهيته سبحانه – انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٨ وفتح المجيد ص١٥ وشرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ٢٥٩ وتطهير الاعتقاد ص ٣

(٢) انظر المصباح المنير

(٣) الاعراف اية رقم ٥٤

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦،٧٧ تيسير العزيز الحميد ص ١٧،١٨

وبعبارة أخرى فأن هذا التوحيد معناه الاقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل المطلق فى الكون : بالخلق ، والتدبير والتغيير ، والتيسير ، والزيادة ، والنقص والاحياء ، والاماتة ، وغير ذلك من الافعال ، لايشاركه أحد فى فعله سبحانه .

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد جد الافصاح ، ولاتكاد سورة من سوره تخلو من ذكره أو الاشارة اليه ، فهو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الاخرى ، لأن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده ، بالتوجه اليه بالعبادة والخشوع والخضوع ، وهو المستحق وحده ، للحمد والشكر ، والذكر ، والدعاء ، والرجاء ، والخوف ، وغير ذلك . والعبادة كلها لايصح أن تكون الا لمن له الخلق والامر كله [٥] .

ومن جهة أخرى فان الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بصفات الجلال والجمال والكمال ، لان هذه الصفات لاتكون الا لرب العالمين ، اذ يستحيل ثبوت الربوبية والملك لمن ليس بحي ولا سيمع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أقواله وأفعاله [٦] .

ولهذا فانا نجد أن القرآن الكريم قد ذكر هذا النوع من التوحيد فى مقام الحمد لله ، وعبادته ، والانقياد له والاستسلام . وفي مقام بيان صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى :

ففي مقام الحمد يتلو المسلم في كل ركعة يصليها (**الحمد لله رب العالمين**) [٧]

ويقول سبحانه وتعالى(**فلله الحمد رب السموات والارض رب العالمين**) [٨]

وفي مقام الاستسلام لله والانقياد له قال عز وجل :(قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) [٩]

وفي مقام التوجه لله عز وجل واخلاص القصد اليه قال عز وجل :(قل ان صلاتى ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين) [١٠]

وفى مقام تولى الله عز وجل دون غيره قال سبحانه (قل أغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والارض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل أني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) [١١]

(٥) انظر تفسير الطبرى ج٥ ص ٣٩٥ شرح ملا على القاري على الفقة الاكبرص ٩

(٦) فتح المجيد ص ١٣ الاسئلة والاجوبة ص ٢٩،٣٠

(٧) الفاتحة – اية ٢

(٨) الجاثية – اية ٣٦

(٩) الانعام – اية ٧١

(١٠)الانعام – اية ١٦٢

(١١) الانعــام – اية ٦٤

وفى مقام الدعاء قال عز وجل :(**الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لايحب المعتدين**)[١٢]

وفى مقام عبادة الله عز وجل قال سبحانها :(**وما لي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون**)[١٣] وقال ايضا (**يا أيها الناس اعبدو ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**)[١٤]

فان خالق السموات والارض وما فيهن هو وحده الذي يستحق أن يتخذه العبد الها ووليا ويسلم نفسه اليه ، ويدعوه ، ويتوجه اليه .

ومن جهة اخرى فإننا نجد القرآن الكريم يجمع بين ربوبية الله عز وجل المتمثلة في ملكه للسموات والارض وما فيهما ، وقيوميته عليهما ، وبين أسمائه الحسنى وصفاته العلى : فتدبر قوله تعالى فى آية الكرسى :(**الله لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والارض ، ولايؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم**)[١٥] فان الذى خلق السموات والارض هو وحده الحى الذى لايموت ، القيوم ، العليم ، الحفيظ ، العلي ، العظيم ، ثم انظر الى قوله تعالى :(**ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد**)[١٦] وقوله تعالى (**الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)[١٧] فانه لاجدال أبدا في ان الذى خلق الخلق هو الرقيب عليهم ، اللطيف الخبير بما يعملون .

وأما الذين يقرون بأن الله رب كل شئ وخالق كل شئ ، ولا يوحدونه في الوهيته فيشركون معه غيره فى عبادته ، ولا يوحدونه فى اسمائه وصفاته ، فيعطلونها أو يشبهونها بصفات المخلوق ، أو يؤولونها تأويلات فاسدة لاوجه له ، فان هذا التوحيد لاينفعهم ، ولايخرجهم من دائرة الكفر الى دائرة الايمان ، فقد حكى الله سبحانه وتعالى عن المشركين انهم كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شئ وظلوا مع ذلك مشركين[١٨] لأنهم لم يوحدوا الله في الوهيته ،فعبدوا غيره سبحانه ، ولأنهم لم يوحدوا الله في أسمائه وصفاته ، فجحدوا بعضها ، ولم يؤمنوا بها ولذلك قال عنهم الله عز وجل :(**وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون**)[١٩] فقد قال مجاهد فى هذه الاية : (ايمانهم بالله قولهم ان الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا ،

(١٢) الاعـراف - الايتان ٥٤، ٥٥

(١٣) يـس - اية ٢٢

(١٤) البقـرة - الايتان ٢١ ، ٢٢

(١٥) البقـرة - اية ٢٥٥

(١٦) ق - اية ١٦ (١٧) الملك - اية ١٤

(١٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩، فتح المجيد ص ١٧، تيسير العزيز الحميد ص ١٧، تطهير الاعتقاد ص ٥

(١٩) يوسف - الاية ١٠٦

فهذا ايمان مع شرك عبادتهم غيره)[٢٠]
وقالت طائفة من السلف : (تسألهم: من خلق السموات والارض ؟ فيقولون : الله ، وهم مع هذا يعبدون غيره)[٢١] وقد اخبر سبحانه عن المشركين أنهم كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المالك ، فقال عز من قائل (**ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولون الله**)[٢٢] وقال ايضا (**قل من يرزقكم من السماء والارض، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون**)[٢٣]

وهكذا فانه ليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شئ يكون موحدا له في الوهيته وصفاته وأسمائه[٢٤] واكثر العباد لاينكرون الخالق ، وربوبيته على الخلق، ولكن معظم كفرهم من عبادتهم غير الله عز وجل[٢٥]

النوع الثانى : توحيد الالوهية:

ومعناه بعبارة اجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الاله الحق ، ولا اله غيره وافراده سبحانه بالعبادة ، وبيانه : أن الاله هو المألوه[٢٦] اي المعبود والعبادة في اللغة هى الانقياد والتذلل والخضوع[٢٧] وقد عرفها بعض العلماء بأنها كال الحب مع كال الخضوع[٢٨]

فتوحيد الالوهية مبنى على اخلاص العبادة لله وحده ، فى باطنها وظاهرها ، بحيث لايكون شئ منها لغيره سبحانه : فالمؤمن بالله يعبد الله وحده ولايعبد غيره فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع وجميع انواع العبادة واشكالها

وهذا النوع من التوحيد يتضمن فى حقيقته جميع انواع التوحيد الاخرى فيتضمن توحيد الله فى ربوبيته[٢٩] وتوحيده فى اسمائه وصفاته وليس العكس فان توحيد العبد لله فى ربوبيته لايعنى انه يوحده فى الوهيته فقد يقر بالربوبية ولايعبد الله عز وجل ، وكذلك توحيد الله في اسمائه وصفاته لايتضمن أنواع التوحيد الاخرى . ولكن العبد الذي يوحد الله فى ألوهيته على الخلق ، فيقر انه سبحانه هو ، وحده ، المستحق

(٢٠) انظر تفسير الطبرى ج١٦ ص ٢٨٧

(٢١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن يزيد ابن اسلم – انظر تفسير ابنى كثير ج ٢ ص ٤٩٤ وتفسير الطبرى ج ١٦ ص ٢٨٦–٢٨٨

(٢٢) العنكبوت – اية ٦٣ (٢٣) يونس – اية ٣١

(٢٤) فتح المجيد ص ١٧ شرح ملا على القاري على الفقه الاكبر ص ٩

(٢٥) احياء علوم الدين ج ١ ص ١٨٢ شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٨

(٢٦) فهو على وزن فعال بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب – المصباح المنير، وانظر ايضا طريق الوصول الى السلم المأمول ص ١٢

(٢٧) نقول : طريق معبد : اى مذلل – انظر اساس البلاغة للزمخشرى والمصباح المنير وتطهير الاعتقاد ص ٦

(٢٨) شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ٢٥٩ ، اغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٨، ١٢٩

(٢٩) هذا مع ملاحظة ان وحدانية الله فى ربوبيته على الخلق دليل قاطع على انه سبحانه هو وحده الذى يستحق العبادة كما تقدم عند الكلام عن توحيد الربوبية ولكن كثيرا من الناس لايأخذون بمقتضى الدليل عنادا وكفرا. فيقرون بالربوبية، ولايقرون بما تدل عليه من وحدانية الله فى الالوهية.

للعبادة ، وأن غيرولايستحقها ، ولايستحق شيئا منها يقر فى الواقع بأن الله رب العالمين ، وبأن له الاسماء الحسنى ، والصفات الكاملة ، لآن اخلاص العبادة لا يكون لغير الرب ولايكون لمن فيه نقص [٣٠] اذ كيف يعبد من لم يخلق ولم يدبر أمر الخلق ، وكيف يعبد من كان ناقصا ؟

ومن هنا كانت شهادة أن (لا اله الا الله) متضمنة لجميع انواع التوحيد : فمعناه المباشر توحيد الله فى ألوهيته ، الذي يتمضمن توحيد الله فى ربوبيته وأسمائه وصفاته .

من أجل ذلك كان هذا التوحيد أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، ومن أجله خلقت الخليقة ، كما قال الله تعالى :(**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**) [٣١]

يقول ابن تيمية : (وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الاولى والاخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين) [٣٢]

ومن أجله ارسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، فما من رسول أرسله الله الى العباد الا وكان هذا التوحيد أساس دعوته وجوهرها ، قال عز وجل :(**ولقد بعثنا في كل امة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**) [٣٣] وقال سبحانه : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون**) [٣٤] **وأخبر عز وجل عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب أنهم كانوا جميعا يقولون لاقوامهم هذه الكلمة** : (**اعبدوا الله مالكم من اله غيره**) [٣٥] ، كما اخبر سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال لقومة :(**انى وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين**) [٣٦]

ولما كان هذا التوحيد هو حقيقة دين الاسلام فقد كانت الشهادتان أول ركن من أركان هذا الدين ، قال رسول الله ﷺ :(بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت) [٣٦]

هذا ويستلزم توحيد الله فى الوهيته أن نتوجه اليه ،وحده بجميع انواع العبادة واشكالها ونخلص قلوبنا فيها من أيه وجه اخرى وهذه عبارة يدخل فيها أمور كثيرة نذكر منها :

١. وجوب اخلاص المحبة لله عز وجل ، فلا يتخذ العبد ندا لله في الحب ، يحبه كما يحب الله ، أو يقدمه فى المحبة على حب الله عز وجل ، فمن فعل ذلك كان من المشركين ،

(٣٠) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩ وما بعدها

(٣١) الذاريات – أية ٥٦

(٣٢) رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية ضمن مجموعة رسائل ص ٢٦١

(٣٣) النحـــل – الاية ٤٠

(٣٤) الأنبيـاء – الاية ٢٥

(٣٥) المؤمنون – الاية ٢٣. هود – الاية ٦١ . الاعراف – الاية ٦٥

(٣٦) رواه البخارى ومسلم – انظر : زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم ١. ص ١٢٩

قال عز وجل:(**ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله**)(٣٧) فمن الشرك الاكبر الذى لايغفرة الله الا بالتوبة منه : ان يتخذ العبد من دون الله ندا يحبه كما يحب الله عز وجل(٣٨) واذا كان الانسان مفطورا على حب الذات والآباء والاوطان والأموال فان اخلاص العبودية لله لاتعنى القضاء على هذه الفطرة ، وانما المطلوب من المؤمن ان يكون حب كل شئ فى الدنيا عنده بعد حب الله عز وجل وحب الله سبحانه عنده فوق كل حب حتى يضحى بكل هذه القيم فى سبيل الله اذا وقع تعارض بينها وبين ما يقتضيه حبه لربه ، وقد توعد الله عز وجل من يقدمون هذه القيم الدنيوية على حب الله وحب رسوله ﷺ فقال سبحانه (**قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين**)(٣٩)

٢ – وجوب افراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لايقدر عليه الا هو سبحانه قال عز وجل(**ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك ، فان فعلت فانك اذا من الظالمين**)(٤٠) وقال تعالى :(**وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين**)(٤١)

وقال تعالى :(**ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله**)(٤٢)

٣ – وجوب افراد الله عز وجل بالخوف منه، فمن اعتقد ان بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها(٤٣) فخاف منها فقد أشرك بالله، لقوله تعالى :(**فاياى فارهبون**)(٤٤) ولقوله ايضا :(**وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو، وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**)(٤٥)

٤– وجوب افراد الله سبحانه بجميع انواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود وصوم وذبح وطواف وجميع العبادات القولية من نذر واستغفار وغير ذلك

(٣٧) البقرة – الاية ١٦٥

(٣٨) شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ٢٦٨

(٣٩) التوبة – الاية ٢٤

(٤٠) يونس – الاية ١٠٦

(٤١) المائدة – الاية ٢٣

(٤٢) البقرة – الاية ٢١٨

(٤٣) هذا القيد للتمييز بين خوف العبادة والخوف الفطرى والاول لايصح الا لله عز وجل ومعناه ان يعتقد الانسان ان القادر على الضر بمشيئته وقدرته هو الله وغيره لايضر ولاينفع الا ان يجعله الله سببا للضرر والترفع من علامات خوف العبادة انه يقع فى القلب كلما ذكر المخوف منه واما الخوف الفطرى كخوف الحيوان المفترس او الخوف عند اشهار السلاح ونحوه فلا يحدث فى القلب الا عند مباشرة المكروه وهذا لايضر بالتوحيد لانه من فطرة الانسان التى فطر الله الناس عليها

(٤٤) النحل – الاية ٥١

(٤٥) يونس – الاية ١٠٧

فهذه العبادات وغيرها يجب ان تكون لله تعالى وحده ، ومن صرف شيئا منها لغير الله فقد اشرك ، وقد قال تعالى (ان الله لايغفر ان يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا)[٤٦]

النوع الثالث : توحيد الاسماء والصفات :

ومعناه بعبارة اجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال ومتنزه عن جميع صفات النقص ، وانه متفرد بهذا عن جميع الكائنات وذلك باثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته رسوله ﷺ من الأسماء والصفات الواردة فى الكتاب والسنة من غير تحريف الفاظها أو معانيها ولا تعطيلها بنفيها أو نفى بعضها عن الله عز وجل ، ولاتكييفها بتحديد كنهها واثبات كيفية معينة لها ولا تشبيهها بصفات المخلوقين

وواضح من هذا التعريف ان توحيد الاسماء والصفات يقوم على ثلاثة اسس ، من حاد عنها لم يكن موحدا ربه فى اسمائه وصفاته[٤٧] :

الاول : تنزيه الله جلا وعلا عن مشابهة الخلق وعن اى نقص.

الثانى : الايمان بالاسماء والصفات الثابتة فى الكتاب والسنة دون تجاوزها بالنقص منها أو بالزيادة عليها أو تحريفها او تعطيلها

الثالث : قطع الطمع عن ادارك كيفية هذه الصفات

فأما الاساس الاول فهو تنزيه الله عز وجل عن ان يشبه شئ من صفاته شيئا من صفات المخلوقين. وهذا الاصل يدل عليه قوله تعالى(**ليس كمثل شئ**)[٥٠]

يقول القرطبى عند تفسير قوله تعالى (**ليس كمثله شئ**) والذى يعتقد فى هذا الباب أن الله جل اسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى اسمائه وعلى صفاته لايشبره شيئا من مخلوقاته ولايشبه به ، وما أطلقة الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ، اذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق[٥١] وقال الواسطى رحمه الله (ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة الا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القديمة ان يكون لها صفة حديثة كما استحال ان يكون للذات المحدثة صفة قديمة وهذا كله مذهب اهل الحق والسنة والجماعة)[٥٢]

(٤٦) النساء – الآية ٤٨

(٤٧) انظر: منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات للشيخ محمد الامين الشنقيطى: ص ٣،٢٥

(٤٨) الشورى – الآية ١١

(٤٩) الاخلاص – الآية ٤

(٥٠) النحل – الآية ٧٤

(٥١) تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٨ (مطبعة دار الكتب المصرية)

(٥٢) فى ظلال القران الكريم ج٧ ص ٢٧٢

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند تفسير الآية المذكورة :(والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالق الاشياء لاتماثله هذه الاشياء التى هى من خلقه) [٥٣].

ويدخل في هذا الاساس تنزيه الله سبحانه عن كل مايناقض ماوصف به نفسه ، أو وصفه به رسولهﷺ : فتوحيد الله فى صفاته يقتضى المسلم أن ينزه ربه عن الزوجه والشريك والكفؤ والظهير والشفيع (بدون اذن الله) والولى من الذل ، ويقتضيه أن ينزه الله عن النوم والاعياء والتعب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والنعاس والتحيز وغير ذلك من صفات النقص .

وأما الاساس الثانى فيقتضى وجوب الاقتصار فيما يثبت لله من الاسماء والصفات على مارود منها فى القرآن الكريم أو فى السنة الثابت ، فهى تتلقى عن طريق السمع ، لا بالآراء ، فلا يوصف الله عز وجل الا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ

ولا يسمى الا بما سمى به نفسه او سماه به رسوله ﷺ لأن الله عز وجل أعلم بنفسه وصفاته وأسمائه قال تعالى (أأنتم أعلم أم الله) [٥٤] فاذا كان أعلم بنفسه ، وكان رسله صادقين مصدقين ، لايخبرون الا بما أوحى اليهم من ربهم ، فاذا يجب الرجوع فى باب الاسماء والصفات نفيا واثباتا الى ما اخبر به الله عز وجل واخبر به رسوله ﷺ قال الامام احمد بن حنبل رحمه الله تعالى :(لايوصف الله الا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لايتجاوز القرآن والحديث) [٥٥].

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى :(من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسول تشبيه ولا تمثيل) [٥٦]

ويقتضى هذا الاساس كل عبد مكلف ان يؤمن بما ورد من الصفات والاسماء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويجريها على معانيها الواضحة الظاهرة فى لغة العرب ، ولايعطلها اى يجحدها او ينفى بعظها عن الله عز وجل ، ولا يحرفها عن معانيها الظاهرة .

وأما الاساس الثالث فيقتضى من العبد المكلف ان يؤمن بتلك الصفات والاسماء المنصوص عليها فى الكتاب والسنة من غير سؤال عن كيفيتها ، ولا بحث عن كنهها وذلك لأن معرفة كيفية الصفة موقفة على معرفة كيفية الذات لان الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها وذات الله عز وجل لايسأل عن كنهها وكيفيتها ، فكذلك صفاته سبحانه لايصح السؤال عن كيفياتها [٥٧] ولذلك أثر عن كثير من السلف انهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية

(٥٣) فى ظلال القرآن الكريم ج٧ ص ٣٧٢

(٥٤) البقرة – الآية ١٤٠

(٥٥) الروضة الندية ص ٢٣ شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص ٢١

(٥٦) انظر المرجعين السابقين واتحاف الكائنات ص ٦ وشرح ملا على القارى ص ١٥

(٥٧) منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات – محمد الامين الشنقيطى ص ٢٥. الروضة الندية ص ٢٣، ٢٨

استواء الله عز وجل :(الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به [٥٨] واجب والسؤال عنه بدعة) [٥٩] . فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا ، وأن السؤال عنه بدعة .

فلو أن قائلا قال لنا : كيف ينزل ربنا الى سماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فاذا قال : لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع وتابع له ، فكيف تطالبنا ببيان كيفية سمع الله وبصره وتكلمه واستوائه ونزوله ؟ وانت لاتعلم كيفية ذاته ! واذا كنت تقر بأن الله عز وجل حقيقة ثابتة فى نفس الامر مستوجبة لصفات الكمال لايماثلها شئ فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت فى نفس الامر وهو متصف بصفات الكمال التى لايشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم [٦٠]

ويتبين مما تقدم أن هذا التوحيد يقدح فيه عدة أمور يجب ان لايقع فيها المسلم ، وهى :

١ – التشبيه : اى تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق ، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله سبحانه ، وكتشبيه اليهود عزيرا بالله ، وتشبيه المشركين أصنامهم بالله وكتشبيه بعض الطوائف وجه الله بوجه المخلوق ، ويد الله بيد المخلوق ، وسمع الله بسمع المخلوق ، ونحو ذلك [٦١]

٢ – التحريف ، أو التغيير والتبديل ، كتحريف الفاظ الاسماء والصفات بزيادة أو نقصان أو تغيير الحركات الاعرابية ، أو تحريف معناها مما سماه بعض المبتدعين تأويلا ، وهو حمل اللفظ على معنى فاسد لم يعهد به استعمال فى اللغة ، كتأويل الوجه بالذات ، والاستواء بالاستيلاء [٦٢]

٣ – التعطيل : وهو نفى الصفات الالهية ، وانكار قيامها بذات الله سبحانه ، كتعطيل الله جل وعلا عن كماله المقدس ، وذلك بجحد أسمائه وصفاته ، وكتعطيل معاملة الله عز وجل بترك عبادته ، وكتعطيل المصنوع من صانعه كمن قال بقدم المخلوقات ، وجحد أن الله خلقها وصنعها [٦٣]

٤ – التكييف : وهو تعيين كيفية الصفات ، واثبات كنهها

وهذا المنهج فى اخذ الصفات والاسماء المذكورة فى القرآن والسنة على ظاهرها من دون تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف هو مذهب السلف من الصحابة رضوان الله عليهم ، والتابعين وتابعيهم ، يقول الشوكانى :(ان مذهب السلف من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وتابعيهم هو ايراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشئ منها ولا تشبيه ،

(٥٨) اى بالاستواء (٥٩) الروضة الندية ص ٢٩

(٦٠) انظر الروضة الندية ص ٣٤

(٦١) الاسئلة والاجوبة الاصولية– تأليف عبد العزيز المحمد السلمان ص ٣٥، الروضة الندية ص ٣٥

(٦٢) الروضة الندية ص ٢٥، الاسئلة والاجوبة ص ٣٢،٣٣

(٦٣) انظر المرجعين السابقين

ولا تعطيل يفضى اليه كثير من التأويل وكانوا اذا سأل سائل عن شئ من الصفات تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال القيل ، وقالوا : قال الله هكذا ، ولاندرى بما سوى ذلك ، ولا نتكلف ولانتكلم بما لم نعلمه ، ولا اذن الله لنا بمجاوزته ، فان أراد السائل ان يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيمالا يعنيه ونهوه عن طلب مالا يمكن الوصول اليه الا بالوقوع فى بدعة من البدع التى هى غير ماهم عليه وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين عن التابعين وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة فى الصفات متحدة والطريقة لهم جميعا متفقة وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به ، وكلفهم القيام بفرائضه من الايمان بالله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وانفاق الاموال فى انواع البر وطلب العلم النافع ، وارشاد الناس الى الخير على اختلاف انواعه ، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار ، والقيام بالامر المعروف والنهى عن المنكر ، والاخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ اليه القدرة ، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعمله ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته ، فكان الدين اذ ذاك صافيا عن كدر البدع ....)[٦٤]

أنواع الصفـات :

والصفات التى وردت فى الكتاب والسنة نوعان[٦٥] : صفات ذاتية ، وصفات فعل :

فأما الصفات الذاتية فهى التى لاتنفك عن الله سبحانه كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة والحكمة ، وضابط هذا النوع من الصفات الملازمةلذاتالله عز وجل فانها قائمة فى الله سبحانه لاينفك عنها .

وأما صفات الفعل فهى ماتعلق بمشيئة الله وقدرته ، كالاستواء والنزول والمجئ والعجب والضحك والرضى والحب والكره والسخط والفرح والغضب والمكر والكيد والمقت .

والواجب في هذه الصفات بنوعيها اثباتها لله عز وجل على حسب المعنى الذى يليق بكمال الله تعال ، وهو المعنى الحقيقى لها اذ ليس فيه تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف ، وان نقول مثل ما قال الامام الشافعى ، رضى الله عنه : (آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ)[٦٦]

أسماء الله عز وجـل

وأما أسماء الله عز وجل ، فهى أعلام عليه ، أخبرنا بها الله فى كتابه ، والرسول ﷺ فى سنته ، وكل اسم من هذه الاسماء يدل على صفة أو صفات لله سبحانه . وكل اسم منها مشتق من مصدره ، كالعليم والقدير والسميع والبصير ، ونحوها ، فالعليم مشتق من العلم ، وهو يدل على صفة العلم للبارى ، وكذلك بقية الاسماء

(٦٤) انظر : التحف فى مذاهب السلف للشوكانى ص ٧

(٦٥) انظر : الاسئلة والاجوبة ص ٤٨ والفقة الاكبر وشرحة لملا على القارى ص ١٥

(٦٦) الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٥٠.

والاسم الجامع لمعانى الاسماء كلها ، والصفات كلها هو « الله » وقد اختلفوا فى اشتقاقه : فقال جماعة : هو مشتق ، واصله « الاله » حذفوا الهمزة ، وأدغموا اللام فى اللام فصارتا لاما واحدة مشددة مضخمة ، ورجح هذا ابن القيم وسيبويه والطبرى ، وذهب بعضهم الى انه ليس بمشتق (٦٧)

هذا ولا تنافى بين كون هذه الاسماء نعوتا لله عز وجل وأعلاما عليه ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ، وكل اسماء الله تدل على معانيها وجميعها أوصاف مدح (٦٨)

وسميت « الحسنى » لدلالتها على أحسن مسمى ، وأشرف مدلول

وتوحيد الله فى اسمائه يقتضى الايمان بكل اسم سمى به نفسه ، وبما دل عليه هذا الاسم من معنى وبما تعلق بهذا الاسم من آثار فمثلا : ورد فى القرآن اسم الله (الرحيم) فنؤمن بأن هذا علم على الله عز وجل ، ونؤمن بأن هذا الاسم يدل على أن الله ذو رحمة ، ونؤمن أيضا ان الله يرحم من يشاء وكذلك كل اسم ورد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (٦٩)

وأما عدد أسماء الله جل وعلا ، فالذى ورد النص عليه تسعة وتسعون اسما : جاء فى صحيح البخارى وصحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا . من أحصاها دخل الجنة ، انه وتر يحب الوتر) (٧٠) وقد اتفق العلماء على ان قول النبى ﷺ « تسعة وتسعين اسما » لايفيد انها محصورة فى هذا العدد ، وانما غاية ما فى الحديث الصحيح ان لله هذه الاسماء المذكورة من احصاها دخل الجنة وليس فيه نفى غيرها عن الله سبحانه فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء (٧١)

ويدل على أن هناك أسماء لم يخبرنا بها البارى ، وانما استأثر بها في علم الغيب ماورد عن رسول الله ﷺ انه قال : (ما أصاب مسلما قط هم ولاحزن فقال : اللهم انى عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو انزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، الا اذهب الله عنه همه وابدله مكان همه فرحا ، قالوا : يارسول الله : الا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى .ينبغى لمن سمعهن ان يتعلمهن) (٧٢)

(٦٧) انظر : فتح المجيد ص ١١ وقد قال الطبرى فى معنى لفظ الجلالة الله ذو الالوهية والمعبودية على خلقة اجمعين – تفسير الطبرى ٢. ص ١٢٣

(٦٨) فتح المجيد ص ١٤ الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٤٤

(٦٩) الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٤٤

(٧٠) اخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج٥ ص ٣٧٢ وهداية البارى ج ١ ص ١٣٥ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٥

(٧١) الاسماء والصفات للبيهقى ص ٦، ايثار الحق على الخلق للمرتضى اليمانى ص ١٦٩، وفتح البارى ج١١ص ١٨٣ تفسير القاسمى ج٧ ص ٢٩١١، شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٠، صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٥

(٧٢) رواه احمد وابو عوانه فى صحيحه، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه احمد وابو يعلى والبزار ورجال احمد رجال الصحيح غير ابى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان . انظر ايثار الحق ص ١٧٠ وانظر الأسماء والصفات للبيهقى ص ٦،٧ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١١٠

وأما معنى احصاء اسماء الله الوارد فى الحديث السابق فهو : معرفتها وحفظها ، وفهمها ، والايمان بها ، وحسن المراعاة لها ، والمحافظة على حدودها فى معاملة الله بها ، ودعاء الله عز وجل بها ، فيكون معنى ماورد فى الحديث : من حفظها متفكرا فى مدلولاتها معتبرا بمعانيها عاملا بمقتضاها مقدسا لمسماها دخل الجنة (٧٣)

أدلة توحيـــد الاسماء والصفات :

وأدلة هذا النوع من التوحيد فى القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، كثيرة جدا بل انه لاتخلو سورة من سور القرآن ، ولاصفحة من صفحاته ، من ذكر صفات الله وأسمائه ، فتجده يذكرها ويذكر بها فى مختلف موضوعاته ، من توحيد ، وعبادة وتشريع ، وفى مقام أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وقصصه وأمثالة ، ونذكر لك فى هذا المقام سورة جامعة فى توحيد الاسماء والصفات ، واعظم أيه من آى القرآن

فأما السورة ، فهى سورة الاخلاص ، التى تعدل ثلث القرآن ، كما اخبر المصطفى ﷺ (٧٤) حيث يقول الله عز وجل :(**قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد**)

فهذه السورة العظيمة تضمنت اثبات كل كمال الله عز وجل ، ونفى كل نقص عنه ، فقد اخبر سبحانه فيها انه هو الله الاحد الصمد ، وانه لم يلد ولم يولد ، وليس له كفو ، ومعنى الاحد ، الذى لا شبيه له ولا نظير (٧٥) فيدل هذا الاسم الكريم على ان الله سبحانه ليس كمثله شىء فى صفات الكمال الثابتة له ومعنى الصمد السيد الذى يصمد اليه فى الامور ويقصد فى الحوائج والتوازن(٧٦)فيدل هذا الاسم على أن الله وحده هو المستحق لان يقصد بالحوائج والمسائل ، ولا يبطل هذا الاستحقاق بذهاب من يذهب عن الحق ويضل السبيل ، فيقصد الخلق ، ويعرض عن الخالق جلا وعلا ، لانه اذا كان الله هو الخالق والمدبر لما خلق ، لا خالق غيره ولا مدبر سواه ، فالاعراض عن قصده سبحانه جهل وحمق ، لان الامر كله بيده (٧٧) وهكذا اثبت اسم الاحد نفى جميع صفات النقص عن الله عز وجل ، فان هذا الاسم (الصمد) قد أثبت لله تعالى جميع صفات الكمال والجلال(٧٨)

(٧٣) الاسماء والصفات للبيهقى ص ٦ والاسئلة والاجوبة ص ٤٥، فتح البارى ج١٣ ص ٣٢٢، صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٦،٥

(٧٤) فقد روى البخارى فى صحيحه عن ابى سعيد الخدرى ان رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله احد ، يرددها فلما أصبح جاء الى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده انها تعدل ثلث القرآن » وعن ابى سعيد قال : قال النبى ﷺ لاصحابة « ايعجز احدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، فقالوا : اينا يطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن. انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج٩ ص ٤٩ والاحاديث فى فضل سورة الاخلاص كثيرة جدا : زاد المعاد ج١ ص ٨٢

(٧٥) الاسماء والصفات ص ٢١ شرح ملا على القارى على الفقة الاكبر ص ١٤

(٧٦) فتح البارى ج٨ ص ٦٠١ الاسماء والصفات ص ٥٨ شرح ملا على القارى على الفقة الاكبر ص ١٤

(٧٧) الاسماء والصفات ص ٥٨.

(٧٨) فتح البارى ج٩ ص ٥٠

ومن هنا تدرك لم اخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ان هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم فأنها قد تضمنت عقيد الاسلام كلها ، القائمة على اثبات صفات الكمال للخالق ونفى صفات النقص عنه ، واستحقاقه سبحانه للعبادة والتوجه اليه . والقرآن بمجموعه عقيدة تبين للعباد مايجب عليهم من معرفة الله وأسمائه وصفاته ، وشريعة تبين لهم حقوقهم وواجباتهم ، وكيفية التعامل بينهم ، وأخبار وقصص تبين للعباد سنن الله فى معامله الخلق ، وتفصل لهم ثواب الله وعقابه ، ووعده ووعيده ، يقول ابن القيم فى بيان حقيقة هذه السورة :(فسورة الاخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ومايجب اثباته للرب تعالى من الاحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمدية ، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم الصمدية ، ونفى الكفوْ المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والتنظير ، فتضمنت هذه السورة اثبات كل كمال له ، ونفى كل نقص عنه ، ونفى اثبات شبيه او مثيل له فى كماله ، ونفى مطلق الشريك عنه ، وهذه الاصول هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى الذى يباين صاحب جميع فرق الضلال والشرك)(٧٩)

وأما الاية ، فهى آية الكرسى ، التى أخبر الرسول ﷺ انها أعظم آية فى القرآن ، وفيها يقول سبحانه وتعالى :(الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولانوم ، له مافي السموات ومافى الارض ، من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولايحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم)(٨٠)

فهذه الاية العظيمة تضمنت قواعد التوحيد بأنواعه الثلاثة ، فقد اشتملت على صفات وأسماء ، كل منها يعيش قاعدة من قواعد العقيدة الاسلامية :

فقوله تعالى (**الله لا اله الا هو**) قرر قاعدة الالوهية ، التى هى اساس التوحيد ، والتى ينبثق منها منهج الاسلام للحياة كلها ، وهى تستلزم الاتجاه الى الله وحده بالعبودية والعبادة : فلا يكون الانسان عبدا الا لله ولايتجه بالعبادة الا لله عز وجل ، ولايلتزم بطاعة الا طاعة الله ، ولايحتكم الا الى الله ولايستمد شرعة ولاقيمة ولا أخلاقه ولا مفاهيمه الا من الله سبحانه وتعالى(٨١)

وقوله تعالى (**الحى القيوم**) اثبت لذاته العلية اسمين عظيمين :

والحى : هو الذى له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أول له ولا اخر(٨٢) فالحياة التى يوصف بها الله هى الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق ، كذلك هى الحياة الازلية الابدية التى لاتبدأ من مبدأ ولاتنتهى الى نهاية(٨٣)

والقيوم : هو القائم بأمور الخلق ومدبر العالم فى جميع أحواله فهو القيم على كل شئ يرزقه ويحفظه ويرعاه ويدبره بما يريد جلا وعلا(٨٤)

(٧٩) انظر زاد المعاد فى هدى خير العباد ج١ ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨٠) البقرة – الاية ٢٥٥

(٨١) فى ظلال القرآن – المجلد الاول ص ٤١٨ – ٤١٩

(٨٢) تفسير الطبرى ج٥ ص ٣٨٨، الاسماء والصفات ص ٢٠

(٨٣) فى ظلال القرآن المجلد الاول ص ٤١٨ ، ٤١٩

(٨٤) الاسماء والصفات ص ٤٨ شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٤ تفسير الطبرى ج٥ ص ٣٨٨ الروضة الندية ص ٦١

وهذان الاسمان (الحى القيوم) من أعظم اسماء الله الحسنى ، اذ عليهما مدار الاسماء الحسنى كلها ، واليهما ترجع معانيها ، فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة ، فان كان لله تعالى الحياة الكاملة فله كل كمال ، وصفة القيومية تتضمن كمال غناه سبحانه وكمال قدرته ، فهو القائم بنفسه ، فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه ، وهو المقيم لغيره ، فكل موجود مرتكن الى وجود الله وتدبيره(٨٥)

ولهذين الاسمين أثر عظيم فى حياة المسلم ، الذي يؤمن بهما ، ويستحضر مافيهما من معان عظيمة ، فان ضميره يظل مرتبطا بالله ، حبا وعبادة وطاعة ، لانه يعلم أن ربه هو الذى يصرف أمره وأمر كل شئ حوله ، وفق حكمة وتدبير ، فيلتزم في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير ، ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويرقبه في جميع احواله(٨٦)

وقوله تعالى (**لا تأخذه سنة ولانوم**) توكيد لقيامه سبحانه على كل شئ وقيام كل شئ به ، لان السنة – وهى النعاس – والنوم ينافيان الحياة الكاملة والقيومية الكاملة(٨٧)

وقوله تعالى (**له ما فى السموات وما فى الارض**) يقرر ملكيته سبحانه الشاملة لكل شئ المطلقة من أى قيد المنزهة عن أية شركة ولهذه العقيدة اذا استقرت فى قلوب الناس أثر عظيم فى حياتهم : يقول سيد قطب رحمه الله تعالى (فاذا تمخضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشئ انما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الاصلى الذى يملك كل شئ ومن ثم يجب أن يخضعوا فى خلافتهم لشروط المالك المستخلف فى هذه الملكية وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم فى شريعته ، فليس لهم أن يخرجوا عنها والا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ووقعت تصرفاتهم باطلة ... على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير .... مجرد شعور الانسان بحقيقة المالك سبحانه لما فى السموات وما فى الارض ، مجرد تصور الانسان لخلو يده هو من ملكية أى شئ مما يقول : انه يملكه ، ورد هذه الملكية لصاحبها مجرد احساسه بأن مافى يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذى اعارها له فى الاجل المرسوم .. مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع ، وحدة البشح والحرص ، وحدة التكالب المسعور ، وكفيل كذلك بأن يكسب فى النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق ،والسماحة والجود بالموجود ، وأن يفيض على القلب الطمأنينة والقرار فى الوجدان والحرمان على السواء ، فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ، ولايتحرق القلب سعارا على المرموق المطلوب)(٨٨)

وقوله تعالى(**من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه**) توضيح لمقام الالوهية ومقام العبودية ، فكل مخلوق عبد لله ، لايتجاوز حد العبودية ، ولايتعداه ، فليس له الشفاعة عند الله الا باذنه ، وبهذا تضع

(٨٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٤ – ١٢٥

(٨٦) فى ظلال القرآن المجلد الاول ص ٤١٩

(٨٧) المرجع السابق الروضة الندية ص ٦٣

(٨٨) فى ظلال القرآن – المجلد الاول ص ٤٢٠ ، ٤٢١

هذه العقيدة فاصلا واضحا بين حقيقة العبودية وحقيقة الربوبية ، فلا يختلطان ولا يتشاركان فى شئ من الصفات أو الخصائص)[٨٩]

وقوله تعالى (**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء**) اثبات لاحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان والمكان والاشياء ، وبيان لعجز المخلوقات ونقص علمهم الا ماشاء الله أن يعلمهم[٩٠] وايمان المسلم بهذه الصفة لله عز وجل، واستحضارها فى قلبه يجعله مراقبا لربه دائما ، مراعيا لحدوده ، سريع التوبة اليه ان أساء ، وادراكه لحقيقة نفسه ، ونعمة الله عليه فيما يعلمه اياه من الحقائق يجعله دائما شديد الشكر لله ، وبعيدا عن البطر والكبر والتبجح

وقوله تعالى :(**وسع كرسيه السموات والارض ، ولايؤده حفظهما**) دليل على كمال قدرته سبحانه وتمامها .

ثم ختم سبحانه هذه الايه العظيمة بذكر اسمين من اسمائه الحسنى فقال (**وهو العلى العظيم**) والعلى : ذو العلو والارتفاع على خلقه[٩١] فلا يتطاول احد الى مقامه الا ويرده الله الى الخفض والهون فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة والهوان

والعظيم ذو العظمة الذى كل شىء دونه فلا شىء اعظم منه سبحانه[٩٢] وعندما تستقر حقيقة علوالله وعظمته فى نفس الانسان فانه يعرف قدر نفسه ويثوب الى مقام العبودية لله عز وجل فلا يتكبر ولا يطغى وانما يخاف الله ويهابه ويتأدب معه ومع خلقه سبحانه[٩٣]

ذلك بعض من مظاهر عظمة آية الكرسى، فينبغى لكل مسلم ان يحرص عليها ويحفظها ويتدبر معانيها ويستحضرها ويراعى حقوقها وقد ورد فى فضلها احاديث صحيحة منها : مارواه البخارى عن ابى هريرة من حديث طويل أن الرسول ﷺ قال له :(اذا آويت الى فراشك ، فاقرأ آية الكرس : الله لا اله إلا هو الحي القيوم .. حتى ختم الاية – فانه لن يزال عليك من الله حافظ – ولا يقربك شيطان حتى تصبح)[٩٤] وما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ :

يا أبا المنذر : أتدرى اى آية من كتاب الله معك اعظم ؟ قال : الله ورسوله اعلم ، قال : يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك اعظم ؟ قال قلت : الله لا اله الا هو الحي القيوم ، قال : فضرب فى صدرى : والله ليهنك العلم أبا المنذر[٩٥]

(٨٩) المرجع السابق

(٩٠) تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٩٦،٣٩٧ الروضة الندية ص ٦٤

(٩١) تفسير الطبرى ج ٥ ص ٤٠٥

(٩٢) المرجع السابق

(٩٣) فى ظلال القرآن، المجلد الاول ص ٤٢٤

(٩٤) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٢ ص ٣٨٤

(٩٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٦ ص ٩٣

الايمـــان بالملائكـــة *

ومن اركان الايمان ، الايمان بالملائكة

والمقصود به الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور وانهم لايعصون الله ماأمرهم ، وانهم قائمون بوظائفهم التى امرهم الله بالقيام بها[1]

فهم نوع من مخلوقات الله عز وجل لايصلح ايمان عبد حتى يؤمن بوجودهم وبما ورد فى حقهم من صفات واعمال فى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان ولاتحريف

قال تعالى (**آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**)[2]

وفى الحديث الذى اخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه والبخارى عندما سأل جبريل عليه السلام عن الايمان قال ﷺ (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[3]

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعى الذى لا يمكن أن يلحقه شك ومن هنا كان انكار وجودهم كفرا باجماع المسلمين بل بنص القرآن العظم فقد قال عز وجل « **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** »

والذى يستقصى الايات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة التى تكلمت عن الملائكة وأوصافهم واعمالهم واحوالهم يلاحظ انها تناولت فى الغالب

* يقول ابن حجر فى معنى الملائكة(جمع ملك بفتح اللام فقيل مخفف من مالك وقيل مشتق من الالوكة وهى الرسالة وهذا قول سيبويه والجمهور وأصله لاك وقيل : اصله الملك بفتح الميم وسكون اللام وهو الاخذه بقوة واصل وزنه « مفعل » فتركت الهمزة لكثر الاستعمال وظهرت فى الجمع .. وقال جمهور اهل الكلام من المسلمين : الملائكة اجسام لطيفة اعطيت قدرة التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات فتح البارى ج ٦ ص ٢٣٢

(١) انظر الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٢١

(٢) البقرة الاية ٢٨٥

(٣) تقدم تخريجه فى صفحة رقم ٥

(٤) النساء الاية ١٣٦

مابين علاقتهم بالخالق سبحانه ، وبالكون والانسان فعرفنا سبحانه من ذلك على ماينفعنا فى تطهير عقيدتنا وتزكية قلوبنا وتصحيح أعمالنا

واما حقيقة الملائكة، وكيف خلقهم، وتفصيلات احوالهم فقد استأثر سبحانه بها وهذه خصيصة عامة من خصائص العقائد الاسلامية تناولت الحقائق الكونية والتعريف بها فى حدود مايحتاج اليه البشر ويصلح احوالهم فى المعاش والمعاد وما تطيقه عقولهم فلا يطلعنا الله جل وعلا على جميع المغيبات سواء منها ماتعلق بجلاله وصفاته وأسمائه وما تعلق بمخلوقاته الغيبية

والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق ، مجملا أو مفصلا ولايزيد على ذلك ، ولا ينقص منه ولايتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه ، ولا يخوض فيه .

صفاتهم الخلقيـة :

وبناء على ذلك فان الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية الاالنذر القليل : فأخبرنا سبحانه انهم خلقوا قبل خلق آدم [٥] اذ ورد فى القرآن ان الله اخبرهم بأنه سيخلق الانسان ويجعله فى الارض قال تعالى (**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم مالا تعلمون**) [٦]

وأما عن المادة التى خلقوا منها، فقد اخبرنا الرسول ﷺ ان الله خلقهم من نور فقد اخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) [٧]

وتدل النصوص فى مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادى يدرك بالحواس الانسانية وانهم ليسوا كالبشر فلا يأكلون ولايشربون ولا ينامون ولايتزوجون مطهرون من الشهوات الحيوانيه ومنزهون عن الاثام والخطايا ولايتصفون بشئ من الصفات المادية التى يتصف بها ابن آدم [٨]

غير أن لهم القدرة على ان يتمثلوا بصور البشر باذن الله تعالى كما أخبر الله عز وجل عن جبريل عليه السلام انه جاء مريم فى صورة بشريه فقال تعالى (واذكر فى الكتاب مريم اذا انتبذت من أهلها مكان شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) [٩]

وفى حديث جبريل المشهور حين جاء يعلم الصحابة معنى الاسلام والايمان والاحسان واشراط الساعة ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه اثر السفر وانه جلس الى النبى ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم شرع

(٥) انظر فتح البارى ج ٦ ص ٢٣٤

(٦) البقرة - الآية ٣٠

(٧) اخرجه مسلم واحمد فى المسند - انظر فتح البارى ج٦ ص ٢٣٢

(٨) شرح ملا على القارى على الفقه الاكبر ص ١١ ، العقائد الاسلامية - سيد سابق ص ١١١ ، فتح البارى ج ٦ ص ٢٣٢

(٩) مريم - الآيتان ١٦، ١٧

فى السؤال[١٠]

ومن صفاتهم الخلقية التى اخبرنا الله بها انه جعل لهم اجنحة يتفاوتون فى أعدادها فقال سبحانه(**الحمد لله فاطر السموات والارض، جاعل الملائكة رسلا اولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء ان الله على كل شئ قدير**)[١١] وقد اخرج مسلم والبخاى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائه جناح[١٢]

هذا هو ما أخبرنا به ربنا تبارك وتعالى عن هذه المخلوقات الكريمة من حيث خلقتها ونؤمن به كما جاء ولا نسأل عن غيره ولو كان فى التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته فهو اللطيف الرحيم بهم يعلمهم الحق والخير

عبـــاد مكرمون

وأما علاقتهم بالله فهى علاقة العبودية الخالصة والطاعة والامتثال، والخضوع المطلق لاوامره عز وجل، لاينتسبون اليه سبحانه الا بهذه النسبة، فهم ليسوا آلهة

من دونه سبحانه، ولا ذريه له ولا بنات كما قال المشركون من قبل (**بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، لايشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون**)[١٣] وقال تعالى (**يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون**)[١٤] وقال ايضا(**لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون**)[١٥] **فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة يطيعونه سبحانه ولايقدرون على شئ من تلقاء انفسهم ، وهم لايستطيعون أن يقترحوا على الله شيئا بفضل قوتهم ، وهم منقطعون دائما لعبادة الله وطاعة أمره قال تعالى (وما منا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون، وانا لنحن المسبحون)**[١٦]

واذا كانت هذه حقيقة أمرهم ، فمن الشرك بالله ان يعبدوا، أو يستعان بهم أو يعتقد أن لهم من الامر شيئا قال تعالى (ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون)[١٧]

(١٠) تقدم تخريجه فى ص ٥

(١١) فاطر – الاية ١

(١٢) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٢٤٢

(١٣) الأنبياء– الايتان ٢٧ ، ٢٨

(١٤) النحل – الاية ٥٠

(١٥) التحريم – الاية ٦

(١٦) الصافات – الايتان ١٦٥ ،١٦٦

(١٧) آل عمران – الاية ٨٠

علاقتهم بالكون والانسان :

واذا كانت تلك هى صلتهم بربهم : عبودية كاملة له سبحانه ، وطاعة تامة لاوامره عز وجل ، فان صلتهم بالكون والانسان هى فرع تلك العبودية ، وتلك الطاعة ، ذلك ان عبادتهم لله كما أخبر سبحانه لاتقتصر على تسبيحهم بحمد الله ، وتمجيدهم له ، وانما تشتمل على تنفيذ ارادته جل وعلا بتدبير امور الكون ورعايته ، بكل ما فيه من مخلوقات وما فيه من حركة ونشاط وما فيه من حياة وجماد وما فيه من قوانين ونواميس وانفاذ قدره وفق قضائه فى هذه المخلوقات كلها وتنفيذ ارادته سبحانه فى مراقبة وتسجيل كل مايحدث فى الكون من حركات ارادية وغير ارادية :فهم الموكلون بالسموات والارض وكل حركة فى العالم تدخل فى اختصاصهم (١٨)

كما اراد خالقم تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه :(**المدبرات أمرا**)(١٩) ، **وكما قال** :(**فالمقسمات أمرا**)(٢٠) وهى الملائكة عند اهل الايمان واتباع الرسل عليهم السلام (٢١)

وقد دل الكتاب والسنة على اصناف الملائكة وانها موكلة بأصناف المخلوقات وأنه سبحانه وكل بالشمس والقمر ملائكة وبالافلاك ملائكة وبالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة وبالمطر ملائكة وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، وبالموت ملائكة ، ووكل بكل عبد ملائكة ، يحفظونه ، وبكل مخلوق ، وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة(٢٢)

ولاينافى هذا مايلاحظ فى الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض لان هذه القوانين والاسباب انما هى مخلوقات من مخلوقات الله والملائكة موكلة بها ايضا وموكلة برعايتها كما ترعى المخلوقات الاخرى ولولا ارادة الله فى حفظ هذه الاسباب والقوانين ولولا قدره فى تسخير الملائكة للحفاظ عليها فان العقل لايستلزم أبدا بناءها على هذه الآماد الطويلة فى انتظامها وتناسقها

وأما الانسان فيدخل بحياته الفطرية فى تلك الرعاية التى وكل الله سبحانه الملائكة بها لانه مخلوق من مخلوقات الله فى الكون ، بل هو المخلوق الذى سخر الله له ما فى الكون كله كما قال تعالى :(**الم تروا ان الله سخر لكم مافى السموات وما فى الارض**)(٢٣) فحفظ الملائكة ورعايتها للسموات والارض وما فيهن رعاية له ، وعون له على القيام بحق الخلافة ومسئوليتها

وفوق هذا فان للملائكة اعمالا اخرى فى حياة الانسان الارادية هدفها- كما حدده الله لهم — هداية البشر واسعادهم ومساعدتهم على عبادة الله وعونهم على اختيار الهدى والصلاح ، واجتناب الشر والفساد والضلال ، فهم الذين اختارهم رب العالمين لايصال هداه الى اهل الارض عن طريق رسله الكرام ، والملك المختار لهذه المهمة هو

(١٨) اغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٠ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٥

(١٩) النازعات - الاية ٥

(٢٠) الذاريات - الاية ٤

(٢١) اغاثة اللهفان ص ١٢٠

(٢٢) اغاثة اللهفان ج٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٥

(٢٣) لقمان - الاية ٢٠

جبريل عليه السلام ، قال تعالى (**وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، على قلبك ، لتكون من المنذرين**)[٢٤]

وهم يلازمون الانسان فى حياته كلها وجميع صحبتهم للانسان لاسعاده وهدايته يلهمونه الحق والخير ويحثونه عليهما ، فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : (ان للشيطان لمة[٢٥] لابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فايعاذ بالشر ، وتكذيب بالحق ، واما لمة الملك فايعاذ بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم انه من الله ومن وجد الاخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ :(**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم**)[٢٦]

كما اخبرنا عز وجل انه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم فقال سبحانه :(**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وزرياتهم ، انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم**)[٢٧] ويقول رسول الله ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الاخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)[٢٨]

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه ، وعبادته ، ويحببونه بالذكر والقران ويحثونه على العلم والخير ، ويحضرون صلاته وقراءته ، وفي ذلك كله احاديث صحيحه من ذلك ما اخرجه البخارى ومسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :(صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن احدهم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد، لا ينهزة الا الصلاة ، لايريد الا الصلاة ، لم يخط خطوة ، الا رفع له بها درجه وحط

عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فاذا دخل المسجد كان فى الصلاة ماكانت الصلاة تحبسه ، والملائكة يصلون على احدكم مادام فى مجلسه الذى صلى فيه ، ثم يقولون : اللهم ارحمه ، الله اغفر له ، الله تب عليه ، مالم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه)[٢٩] وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وفى صلاة

(٢٤) الشعراء – الايتان ١٩٣ ، ١٩٤

(٢٥) اللمة هى الخطرة بالقلب ، ويكون لمة الشيطان بوسوسته للانسان بالسوء ولمة الملك بايحائه بالخير

(٢٦) البقرة – الاية ٢٦٨ ، والحديث اخرجه الترمذى وقال عنه : حسن غريب والنسائى وابن حبان عن ابن مسعود – انظر : فيض القدير للمناوى ج ٢ ص ٤٤٩

(٢٧) غافر – الايات ٧ ، ٨ ، ٩.

(٢٨) متفق عليه – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٣ ص ٢٣٧

(٢٩) متفق عليه واللفظ لمسلم . انظر فتح البارى ج١ ص ٤٤٨ ، وصحيح مسلم بشرح النووى أ – ج٥ ص ٢٢٩

العصر ، ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ فقالوا : تركناهم يصلون وأتيناهم يصلون)(٣٠)

وفي حضورهم مجالس الذكر قال رسول الله ﷺ (ان لله ملائكة يطوفون فى الطرق، يلتمسون اهل الذكر ، فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا الى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو اعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال : تقول : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك قال : فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون : لا والله مارأوك . قال : فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا اشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا واكثر لك تسبيحا . قال : يقول : فما يسألونى ؟ قال : فيقولون : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب مارأوها قال : فيقولون : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال :يقولون : لو أنهم رأوها كانوا اشد عليها حرصا واشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب مارأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال :يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة ، قال : فيقول فأشهدكم انى قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم ، انما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لايشقى جليسهم)(٣١)

وفى تشجيعهم لاهل العلم قال رسول الله ﷺ (ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم الا وضعت له الملائكة اجنحتها رضا بما يصنع)(٣٢)

وهم ايضا يثبتون العبد على العمل الصالح، وخاصة الجهاد فى سبيل الله تعالى، كما قال الله عز وجل **(اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق ، واضربوا منهم كل بنان)**(٣٣)

ومن أعمالهم التى اخبرنا عنها رب العالمين ، مما له أثر عظيم فى تقويم حياة العباد وحفظهم من المعصية والشر ، ما وكل اليهم من مراقبة اعمال العباد وكتابتها بعد احصائها ، فقال سبحانه وتعالى :**(ولقد خلقنا الانسان وتعلم ماتوسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ، اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد)**(٣٤) **وقال ايضا :(وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون)**(٣٥)وقال ايضا**(أم يحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون)**(٣٦)

(٣٠) متفق عليه واللفظ للبخارى – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٢٣٩

(٣١) متفق عليه واللفظ للبخارى – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٣٢) رواه الترمذى وصححه وابن ماجه واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد – انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٠٤

(٣٣) الانفال – الاية ١٣

(٣٤) ق – الاية ١٦

(٣٥) الانفطار – الايات ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٣٦) الزخرف – الاية ٨٠

وفى ختام الكلام عن علاقة الملائكة بالانسان ، وأثرهم فى أعماله الارادية ، وغير الارادية نثبت كلمة جامعة لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى عن هذا الموضوع فقد قال فى كتابه (اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) :(والملائكة الموكلة بالانسان من حين كونه نطفة الى آخر أمره ، لهم وله شأن آخر ، فانهم موكلون بتخليقه ونقله من طور الى طور ، وتصويره ، وحفظه فى أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله ، وأجله وشقاوته ، وسعادته ، وملازمته فى جميع أحواله ، واحصاء اقواله وافعاله ، وحفظه فى حياته ، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفاطره ، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه فى البرزخ ، وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب ، وهم المثبتون للعبد المؤمن باذن الله والمعلمون له ماينفعه ، والمقاتلون الذابون عنه وهم أولياؤه فى الدنيا والآخرة ، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه اليه ، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه ، فهم أولياؤه وانصاره ، وحفظته ومعلموه ، وناصحوه ، والداعون له ، والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه مادام فى طاعة ربه ، ويصلون عليه مادام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله تعالى فى منامه ، وعند موته ، ويوم بعثه ، وهم الذين يزهدونه فى الدنيا ، ويرغبونه فى الاخرة، وهم الذين يذكرونه اذا نسى وينشطونه اذا كسل ، ويثبتونه اذ جزع وهم الذين يسعون فى مصالح دنياه وآخرته فهم رسل الله فى خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزل بالامر من عنده فى أقطار العالم ، وتصعد اليه بالامر)[٣٧]

عـــدد الملائكـــة :

وهم كثرة ، لايحصى عددهم الا الله ، قال تعالى:(**وماجعلنا اصحاب النار الا ملائكة وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا ايمانا ، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هى الا ذكرى للبشر**)[٣٨] واخرج الترمذى وابن ماجه والبزار من حديث ابى ذر مرفوعا : (اطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع اربع اصابع الا وعليه ملك ساجد)[٣٩] وفى حديث المعراج قال رسول الله ﷺ (فرفع لى البيت المعمور ، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ...)[٤٠]

الايمان بالملائكة تفصيلى واجمالى :

ويجب الايمان بالملائكة التى وردت اسماؤهم فى الكتاب أو السنة بالتفصيل ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاث : جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل[٤١] وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذى به حياة القلوب

(٣٧) اغاثة اللهفان من مصايدالشيطان ج٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٣٨) المدثر — الآية ٣١

(٣٩) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٣٣

(٤٠) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٢٣٣

(٤١) اغاثة اللهفان ج٢ ص ١٢٢ ، الكواشف الجلية عن معانى الواسطية ص ٣٦

والارواح[٤٢] وقد ورد ذكره هو وميكائيل فى القرآن الكريم قال تعالى(**قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل**

وميكال فان الله عدو للكافرين)[٤٣] وقد اثنى الله سبحانه عليه فى القرآن احسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، من ذلك قوله تعالى (**فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ، انه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين)**[٤٤] وقال تعالى فى وصفه (**علمه شديد القوى ذو مرة**[٤٥] **فاستوى)**[٤٦] أما ميكائيل فهو الملك الموكول بالقطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان [٤٧] واما اسرافيل فهو الملك الموكول بالنفخ فى الصور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم[٤٨] ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم فى القرآن مالك خازن النار قال تعالى (**ونادوا يامالك ليقض علينا ربك)**[٤٩] كما ورد ذكره فى الحديث الصحيح [٥٠]

فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر اسمائهم فى أحاديث ثبتت صحتها يجب الايمان بهم وبما نيط بهم من الوظائف والاعمال واما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم فيجب ان نؤمن بهم بصورة اجمالية ونؤمن بما ذكر من أصنافهم وأفعالهم فى القرآن والسنة [٥١] فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين كما قال تعالى(**وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون)**[٥٢] وكما قال ايضا(**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)**[٥٣] وكما قال(**أم يحسبون**

(٤٢) اغاثة اللهفان ج ٣ ص ١٢٢

(٤٣) البقرة — الايتان ٩٥ ، ٩٦

(٤٤) التكوير— الايات ١٥ ، ٢١

(٤٥) المقصود بالمرة: صحة الجسم وسلامته من الافات والعاهات — اغاثة اللهفان ج٢ ص ١٢

(٤٦) النجم — الايتان ٥ ، ٦

(٤٧) اغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٢ اصول الايمان لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٤

(٤٨) انظر المرجعين السابقين

(٤٩) الزخرف — الاية ٧٧

(٥٠) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٣٤٢

(٥١) افرد الامام البخارى بابا خاصا لما ورد من الاحاديث الصحيحة فى ذكر الملائكة وقد ذكر فيه مايزيد عن ثلاثين حديثا — انظر صحيح البخارى مع فتح البار ج ٦ ص ٢٣٢

(٥٢) الانفطار — الايات ١٠ — ١٢

(٥٣) الرعد — الاية ١١

انا لانسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون)[٥٤] وقد ورد في بعض كتب التفسير انهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الاعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من امامه وواحد من ورائه فهو بين اربعة ملائكة [٥٥] وروى الامام مسلم والامام احمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالو : واياك يارسول الله ؟ قال : واياى لكن الله اعاننى عليه ، فأسلم ، فلا يأمرنى الا بخير)[٥٦]

ونؤمن كذلك بملك الموت الموكل بقبض ارواح العالمين قال تعالى (**قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم الى ربكم ترجعون**)[٥٧] ولم يصرح القرآن باسمه ولا الاحاديث الصحيحة وجاء فى بعض الآثار تسميته بعزرائيل [٥٨] فالله اعلم

ونؤمن بحملة العرش الذين اخبر عنهم الله فى القرآن فقال سبحانه (**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**)[٥٩] ومنهم اسرافيل الذى ينفخ فى الصور[٦٠]

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار أعاذنا الله منها – وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر قال تعالى(**وقال الذين فى النار لخزنه جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب**)[٦١] وقال تعالى (**عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون**)[٦٢] وقال ايضا(**عليها تسعة عشر وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة**)[٦٣] ونؤمن ايضا بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة لساكنيها من ملابس ومآكل ومشارب ومصانع وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

أثر الايمان بالملائكة فى حياة الانسان :

تقدم أن الله سبحانه لم يطلعنا على شئ من غيبه الا وفيه نعمة عظيمة على الخلق وكان من فضله جلا وعلا علينا أن عرفنا بهذه المخلوقات الكريمة والايمان بها هو من الايمان بالغيب الذى وصف به المتقون قال

(٥٤) الزخرف – الآية ٨٠

(٥٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ١٥٧ ومعنى (اسلم) اى استسلم وانقادلى ولهذا قال (فلا يأمرنى الا بخير) وليس المقصود ان الشيطان آمن لان الشياطين لاتكون مؤمنة . وقد روى بضم الميم فيكون الضمير فيه عائدا الى النبى ﷺ اى اعاننى عليه فأنا أسلم منه ولا يؤثر على ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩

(٥٧) السجدة – الآية ١١

(٥٨) اصول الايمان لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٤

(٥٩) الحاقة – الآية ١٧

(٦٠) اصول الايمان ص ١٤

(٦١) غافر – الآية ٤٩

(٦٢) التحريم – الآية ٦

تعالى :(**الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**)[(٦٤)]

وللايمان بالملائكة آثار عظيمة فى حياة المؤمن :

منها : ان الله سبحانه جنبنا بما اطلعنا من امر هذه الارواح المؤمنة وأفعالها الوقوع فى الخرافات والاوهام التى وقع فيه من لايؤمنون بالغيب ولايتلقون معارفهم عن الوحى الالهى

ومنها : الاستقامة على امر الله عز وجل فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن ويؤمن برقابتهم لاعماله واقواله وشهادتهم على كل مايصدر عنه ليستحى من الله ومن جنوده فلا يخالفة ولايعصيه لا فى العلانية ولا فى السر اذ كيف له ذلك وهو يعلم ان كل شئ محسوب ومكتوب ومشهود عليه

ومنها : الصبر ومواصلة الجهاد فى سبيل الله تعالى وعدم اليأس والشعور بالانس والطمأنينة فهذه المعانى من لوازم الايمان بالملائكة وما اخبر الله من افعالها واحوالها : فعندما يضل الركب عن الطريق وتسود الجاهلية الجهلاء ويصبح المؤمن غريبا فى وطنه وبين اهله وقومه ويجد منهم الصدد والاستهزاء والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله والاستقامة على امره فى هذه الغربة يجد المؤمن انيسا ورفيقا يصحبه ويرافقه ويواسيه ويصبره ويطمأنه ويشجعه على مواصلة السير على درب

الهدى ، فهذه جنود الله معه: تعبد الله كما يعبد، وتتجه الى خالق السموات والارض كما يتجه وتبارك خطواته وتشد من أزره وتذكره بالخير عند ربه فهو اذا ليس وحده فى الطريق الى الله ولكنه يسير مع الركب العظيم ومع الاكثرية من مخلوقات الله عز وجل : مع الملائكة الكرام ومع الانبياء عليهم السلام ومع السموات والارض فهو الاكثر رفيقا وهو الاقوى سندا فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابرا مطمئنا لايزيده صدود الناس الا ثباتا وجهادا

فانظر يا أخى كم انعم الله علينا بخلق الملائكة، وكم انعم علينا بالايمان بهم مما له اشد الاثر فى قلوبنا واعمالنا واستقامة حياتنا والايمان بهم تصديق لقرآن الله ولرسوله الصادق الامين عليه افضل الصلاة واتم السلام

الايمان بالانبياء والمرسلين

ومن أركان الايمان : الايمان بأنبياء الله ورسله

ومعناه : الايمان بمن سمى الله تعالى فى كتابه من رسله وأنبيائه، والايمان بأن الله عز وجل أرسل رسلا سواهم وانبياء لم يعلم عددهم واسماءهم الا الله تعالى الذى أرسلهم قال جل وعلا : (**ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**)[(١)] وقال تعالى :(**وان من امة الا خلا فيها نذير**)[(٢)] وقال ايضا:(**ولكل امة رسول**)[(٣)]

الانبياء والرسل[(٤)] المذكورون فى القرآن

(٦٣) المدثر – الآية ٣١

(٦٤) البقرة – الآيات ١ . ٢ . ٣

(١) غافر – الآية ٧٨

(٢) فاطر – الآية ٢٤

والمذكورون في القرآن الكريم من الانبياء والرسل خمسة وعشرون وهم : آدم ونوح وادريس وصالح وابراهيم وهود ولوط ويونس واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وايوب وشعيب وموسى وهارون واليسع وذو الكفل وداود وزكريا وسليمان والياس ويحيى وعيس ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى :(**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم، ووهبنا له اسحق ويعقوب، كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين**)(٥) وورد ذكر الآخرين في مواضع من القرآن : قال تعالى : (**والى عاد أخاهم هودا**)(٦)

وقال : (**والى ثمود اخاهم صالحا**)(٧) وقال : (**والى مدين اخاهم شعيبا**)(٨) وقال : (**ان الله اصطفى آدم ونوحا**)(٩)

وقال : (واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين)(١٠)وقال :(**محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم**)(١١)

فهؤلاء الرسل والانبياء يجب الايمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلا، بمعنى أن الانسان لو عرض عليه واحد منهم ، لم ينكر نبوته ، ولا رسالته ، ان كان رسولا ، فمن أنكر نبوة واحد منهم ، أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة ، كفر(١٢)

وأما الانبياء والرسل الذين لم يقصصهم القرآن علينا ، فقد أمرنا أن نؤمن بهم اجمالا . وليس لنا أن نقول برسالة احد من البشر أو نبوته مادام القرآن لم يذكره في عداد الانبياء والرسل ، ولم يخبرنا به رسول الله ﷺ

(٣) يونس – الاية ٤٧

(٤) النبى هو كل من أوحى اليه من الله تعالى سواء أمر بتبليغ غيره أم لم يؤمر فان لم يؤمر بالتبليغ فهو نبى وليس رسولا وان امر بالتبليغ فهو نبى ورسول وهكذا فان كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا – انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٧ ، وشرح ملا على القارىء على الفقة الاكبر ص ٦٠

(٥) الانعام – الايات ٨٣ – ٨٦

(٦) هـود – الاية ٥٠ ، الاعراف – الاية ٦٥

(٧) هود – الاية ٦١ ، الاعراف – الاية ٧٣

(٨) الاعراف – الاية ٨٥ ، هود – الاية ٨٤

(٩) ال عمران – الاية ٣٣

(١٠)الانبياء – الاية ٨٥

(١١) الفتح – الاية ٢٩

(١٢) غير أن العامي لايحكم عليه بالكفر الا اذا كان انكاره بعد تعلمه – شرح البيجورى على الجوهرة ص ٤٧

أولو العزم[13] من الرسل :

وأولو العزم من الرسل ، كما ذكر كثير من العلماء خمسة هم : محمد ، وابراهيم ، وموسى ، ونوح ، وعيسي ، عليهم افضل الصلاة والسلام[14] وقد ذكرهم الله تعالى في قوله :(**واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم**)[15]

موضوع الرسالة :

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله الى الخلق لتبشيرهم وانذارهم ، تبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته ان آمنوا به وبرسله وأطاعوه ، وانذارهم من عضب الله ان كفروا وعصوا قال عز وجل(**وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون**)[16]

كما يجب علينا ان نؤمن بأن جميع هؤلاء الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسى واحد هو عبادة الله عز وجل ، واقامة دينه ، وتوحيده فى ربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته ، فقد قال سبحانه (**وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون**)[17] وقال ايضا :(**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**)[18] وقال تعالى (**ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**)[19]

الواجب علينا نحو الرسل :

ويجب علينا تصديق رسل الله جميعا بعد الايمان بهم وبرسالتهم وأن لانفرق بينهم فمن فرق بين رسل الله فأمن ببعضهم وكفر بالاخرين أو صدق بعضهم وكذب بعضا كان من الكافرين بنص القرآن الكريم قال عز وجل (**ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا**)[20]

(١٣) اصل العزم فى الامر : الجد والاجتهاد فيه انظر المصباح المنير وقد ورد فى القرآن الاشارة الى ان من اهم خصال أولى العزم الصبر وتقوى الله قال تعالى :(وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) ، ال عمران – الاية ٤٢. وقال ايضا(فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل) – الاحقاف – الاية ٣٥ وقال ايضا :(ولقد عهدنا الى ادم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) – طه الاية ١١٥

(١٤) انظر الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٢٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٩

(١٥) الاحزاب – الاية ٧

(١٦) الانعام – الايتان ٤٨ ، ٤٩

(١٧) الانبياء – الاية ١٥

(١٨) الشورى – الاية ١٣

(١٩) النحل – الاية ٤٠

(٢٠) النساء الايتان ١٥٠ ، ١٥١ وقال الامام الطبرى عند قوله (يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ..) يعنى انهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمدا ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الانبياء قبله بزعمهم وكما فعلت النصارى من تكذيبهم بمحمد ﷺ وتصديقهم بعيسى وسائر الانبياء قبله بزعمهم – انظر تفسير الطبرى ج٩ ص ٣٥٢

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله ادى أمانته ، وبلغ رسالته على الوجه الاكمل وبينها بيانا واضحا شافيا كافيا

ويجب علينا طاعتهم وعدم مخالفتهم لان ذلك من طاعة الله سبحانه قال تعالى (**من يطع الرسول فقد اطاع الله**)[٢١] وقال ايضا(**وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله**)[٢٢]

ويجب علينا ان نعتقد بأنهم أكمل الخلق علما وعملا ، وأصدقهم ، وأكملهم اخلاقا وان الله سبحانه خصهم بفضائل لايلحقهم فيها احد ، وانه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير فى التبليغ ، وعن الكبائر كلها والصغائر[٢٣] وقد تقع منهم زلات وخطيئات اى عثرات بسيطة بالنسبة الى ماهم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم عليه السلام فى اكله من الشجرة على وجه النسيان ولكنهم لايقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها[٢٤]

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعا كانوا رجالا من البشر فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله انثى قال تعالى(**وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم**)[٢٥]

ونؤمن ان الله سبحانه لم يخصهم بطبائع اخرى غير الطبائع البشرية وانما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون ويشربون ويمشون فى الاسواق وينامون ويجلسون ويضحون ولهم أزواج وذرية ، ويتعرضون للاذى ، وتمتد اليهم ايدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد وانهم يموتون قد يقتلون بغير حق وانهم يتألمون ويصيبهم المرض وسائر الاعراض البشرية التى لاتؤدى الى نقص فى مراتبهم العلية بين الخلق. وقد دل على ذلك كثير من النصوص منا قوله تعالى (**وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا**)[٢٦] وقوله تعالى (**وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق**)[٢٧] وقوله تعالى :(**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية**)[٢٨] وقوله تعالى(**ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**)[٢٩]

(٢١) النساء - الاية ٨٠

(٢٢) النساء - الاية ٦٤

(٢٣) انظرالفقة الاكبر وشرحة لملا على القارى.ص ٥٦

(٢٤) انظر الفقه الاكبر لابى حنيفة وشرحه لملا على القارى ص ٥٧ وشرح العقائد النفسية ص ٤٦٧

(٢٥) الانبياء - الاية ٧

(٢٦) ال عمران - الاية ١٤٤

(٢٧) الفرقان - الاية ٢٠

(٢٨) الرعـد - الاية ٢٨

(٢٩) المائدة - الاية ٧٥

(٣٠) اخرجه البخارى فى أول كتاب النكاح

وقد قال رسول الله ﷺ: (ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء)[30] وكان ﷺ يمرض ويتألم وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب ونحو ذلك مما لانقص عليه فيه[31]

ونؤمن انهم لايملكون شيئا من خصائص الالوهية فلا يتصرفون فى الكون ولا يملكون النفع او الضرر ولا يؤثرون فى ارادة الله تعالى ولايعلمون الغيب الا ما اطلعهم الله عليه قال تعالى (**قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون**)[32] وقال ايضا (**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول**)[33] وانما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق تؤهلهم لتلقى الوحى ، والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوة يقتدى بهم فى أمور الدين والدنيا فيجب علينا ان نؤمن بأن رسل الله معصومون عن اية نقيصة تقدح فى دينهم وطاعتهم لله جل وعلا او فى مقدرتهم على تبليغ الرسالة التى حملوها[34] فقد قال سبحانه فى حقهم(**اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . اولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده**)[35] فهم قد كملهم الله سبحانه فى الامانه والصدق والفطانه والتبليغ وغيرها من الاخلاق التى لابد منها للقيام بالحمل الذى حملهم الله اياه، وبالمسؤولية التى اناطها بهم وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق فقال عز شأنه عن اسماعيل عليه السلام : (**انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا**)[36] وقال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام (**واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا**)[37] الى غير ذلك من الآيات الربانية التى شهدت لهم بالصدق والهدى

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى ، والمعجزات هى مايجريه الله على ايدى رسله وانبيائه من خوارق العادات التى يتحدون بها العباد[38] فنؤمن بكل ماذكر فى القرآن الكريم منها وبما وردت فيه الاحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ

وهذا القدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل، ونؤمن مع هذه المماثلة ان الله

(٣١) يظهر ذلك جليا من دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام وقد افردت مصنفات وكتب جليلة فى شمائله ﷺ واخباره واحواله – انظر مثلا كتاب الترمذى (الشمائل النبوية) وكتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزى وغيرها

(٣٢) الاعراف – الآية ١٨٨

(٣٣) الجن – الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٣٤) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ٥٣

(٣٥) الانعام – الآيتان ٨٩ ، ٩٠

(٣٦) مريم – الآية ٥٤

(٣٧) مريم – الآية ٤١

(٣٨) انظر لمع الادلة لامام الحرمين ص ١١٠

فضل بعضهم على بعض لقوله عز من قائل (**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض : منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**)(٣٩) ونؤمن أن افضلهم وأفضل الخلق على الاطلاق نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وقد فسر بعض السلف قوله تعالى (**ورفع بعضهم درجات**) بأنه سيدنا **محمد** ﷺ (٤٠) وفى ذلك أحاديث صحيحة ، ومنها ما صح عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (انا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع)(٤١) وما رواه واثلة بن الاسقع رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :(ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم)(٤٢) فهذه الاحاديث وغيرها تدل بوضوح على أن محمدا بن عبد الله ﷺ هو افضل الخلق كلهم(٤٣)

الايمان بمحمد ﷺ :

ويجب علينا أن نؤمن بأن محمد بن عبد الله ﷺ نبى الله ورسوله وعبده وصفيه ، ولم يعبد صنما ولم يشرك بالله طرفة عين قط ولم يرتكب ولا كبيرة قط(٤٤)

ونؤمن انه خاتم الانبياء لما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ فأما القرآن فقد قال سبحانه (**ولكن رسول الله وخاتم النبين**)(٤٥) وأما السنة فقد قال ﷺ (مثلى ومثل الانبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة وانا خاتم النبيين)(٤٦) وقال ايضا :(انا محمد وانا احمد وانا الماحى الذى يمحى بى الكفر

(٣٩) البقرة – الاية ٢٥٢

(٤٠) انظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٧٨

(٤١) اخرجه الامام مسلم وغيره: انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ٣٧ ، ٣٨

(٤٢) اخرجه الامام مسلم والترمذى ، وقال عنه حديث حسن صحيح – انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج٥ ص ٢٦ والترمذى بشرح ابن العربى المالكى ج ١٣ ص ١٠٢ – ١٠٣

(٤٣) واما ما ورد عن رسول الله ﷺ انه قال (لاتفضلونى على موسى) وهو حديث متفق عليه فالجواب عليه ان المذموم الذى نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول فان الحديث المذكور كان له سبب يدل على هذا فانه كان قد قال يهودى : لا والذى اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم ، وقال : اتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا فجاء اليهودى واشتكى من المسلم الذى لطمه فقال النبى ﷺ هذا – وعلى هذا يحمل ايضا قوله ﷺ (لاتفضلوا بين أنبياء الله) – انظر صحيح مسلم وشرح النووى عليه ج ١٥ ص ٣٧ ، ١٣٠ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٧١ (٤٤) انظر الفقة الاكبر مع شرحه لملا على القارى ص ٥٩ – ٦١

(٤٥) الاحزاب – الاية ٤٠

(٤٦) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج١٥ ص ٥١

وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى[٤٧] وانا العاقب ، والعاقب ليس بعده نبى)[٤٨]

ونعتقد اعتقادا جازما انه لانبوة بعده ﷺ ، وان كل من ادعاها بعده فهو كذاب ، قال رسول الله ﷺ (وانه سيكون في أمتى ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى)[٤٩]

كذلك يجب ان نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام أمام المتقين ، الذى يقتدى به فى الخير كله ، وانه وحده الجدير بالاقتداء والتأسى به دون غيره قال تعالى :(**قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**)[٥٠] وقال ايضا (**فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما**)[٥١]

كما نؤمن انه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن ، وان له اعلى مراتب محبة الله عز وجل ، وهى الخلة ، فقد قال رسول الله ﷺ (لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكنه اخى وصاحبى وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا)[٥٢]

كما يجب ان نعتقد أنه مبعوث الى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى : فقد حكى الله سبحانه فى القرآن قول الجن :(ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)[٥٣]

وأما أنه صلوات الله وسلامه عليه مبعوث للناس جميعا ، فقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : (وما أرسلناك لا كافة للناس بشيرا ونذيرا)[٥٤] وقال : (**قل: يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا**)[٥٥] وقال ايضا (**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**)[٥٦] وقال ﷺ (فضلت على الانبياء بست : اعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا ، وارسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون)[٥٧] قال شارح العقيدة

(٤٧) ورد فى رواية اخرى (يحشر الناس على قدمى) ومعناهما : يحشرون على الرى وزمان نبوتى وليس بعدى نبى وقيل : يتبعون – انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٠٥

(٤٨) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج١٥ ص ١٠٤

(٤٩) اخرجه مسلم – شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٨

(٥٠) ال عمران – الاية ٣١

(٥١) النساء – الاية ٦٥

(٥٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ١٥٢

(٥٣) الاحقاف – الاية ٣١

(٥٤) سبا – الاية ٣٨

(٥٥) الاعراف – الاية ١٥٧

(٥٦) الفرقان – الاية ١

(٥٧) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر مسلم بشرح النووى ج ٥ ص ٥ هذا وقد ذكر ابن الجوزى كثيرا مما فضل به محمد ﷺ على عدد من الانبياء والرسل فى اخر الجزء الاول من الوفا بأحوال المصطفى

الطحاوية (وكونه ﷺ مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة)[58]

ويجب علينا ان نقدم محبته على الوالد والولد والنفس[59] عن علي رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لايؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس اجمعين)[60] وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له عمر :يارسول الله لانت أحب الى من كل شئ الا نفسي . فقال ﷺ (لا والذى نفسي بيده حتى اكون احب اليك من نفسك) قال عمر : فأنت الان والله احب الي من نفسى فقال النبى ﷺ (الآن ياعمر)[61]

كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله جل وعلا قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ فى كل ماجاء به وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة ، تحدى به العالمين ، فعجزوا عن الاتيان بمثله ، أو بمثل بعض منه ، قال تعالى :(**وان كنتم فى ريب مما نزلناه على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم ، من دون الله ، ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين**)[62]

ونؤمن بأن الله عز وجل ايده بالمعجزات الحسية ، المذكورة فى الاحاديث الصحيحة مثل انشقاق القمر وتسليم الحجر عليه وحنين الجذع اليه ونبوع الماء من بين اصابعه واشباع الخلق الكثير من الطعام القليل وشهادة الشاة المشوية أمامه واظلال السحاب له قبل مبعثه وما كان من حال ابى جهل وصخرته حين اراد ان يضربها على رأسه ، وما كان من شاة ام معبد حين مسح يده المباركة على ضرعها ، ورميته التراب فى وجوه المشركين ، واصابتهم به ، واخباره بالمغيبات التى وقعت كما اخبر عليه الصلاة والسلام واستجابة الله سبحانه لدعائه ، وعصمته من القتل، وغير ذلك مما الفت فيه الكتب ، وصنفت فيه المصنفات الواسعة)[63]

وقد ورد فى معجزاته الحسية اخبار كثيرة ، بعضها متواتر وكثير منها مشهور وهى بمجموعها تفيد العلم اليقيني بوقوع تلك المعجزات اولا وبصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه[64]

كما نؤمن ان الله سبحانه قد ايده بالحجج البالغة ، والادلة الظاهرة الماثلة فى ذاته وصفاته واخلاقه

(٥٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٨

(٥٩) انظر الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٣٨٢

(٦٠) متفق عليه انظر صحيح البخارى ج ١ ص ٤٩ وصحيح مسلم بشرح النووى ص ١٥

(٦١) أخرجه البخارى فى كتاب الايمان والنذور

(٦٢) البقرة – الايتان ٢٣ ، ٢٤

(٦٣) تجد هذه المعجزات وغيرها من دلائل نبوة محمد ﷺ فى كثير من كتب السيرة ، والحديث كما افرد البخارى بابا لذلك سماه (باب علامات النبوة) وكذلك صنع مسلم بن الحسن القشيرى فى باب (معجزات الرسول ﷺ) وافرد لها بعض العلماء مؤلفات خاصة مثل : كتاب (دلائل النبوة) للام ابى نعمي احمد بن عبد الله الاسبهانى صاحب حلية الاولياء ، وكتاب (اعلام النبوة) لابى الحسن على بن محمد الماوردى ، وكتاب (دلائل النبوة) للبيهقى ، وكتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزى

(٦٤) انظر : الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٣٣٩

فنؤمن ان الله عز وجل حباه خلقة وصورة يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته ، وصدقه عليه الصلاة والسلام(٦٥) وما أحسن قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

لو لم يكن فيــه آيات مبينه * * * كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى حباه اخلاق القرآن كلها مما يدل على صدق وتأييد الله له : فما سمع احد منه كذبا لا فى امور الدين ولا فى امور الدنيا ولا قبل البعثة ولا بعدها ولو صدر عنه شئ من ذلك مرة واحدة لاجتهد اعداؤه فى نشره واظهاره وما فعل فعلا قبيحا أو منفرا، لا قبل النبوة ولا بعدها ، وما فر من أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الامر يوم احد ويوم الاحزاب ، وكان عظيم الرحمة بامته ، حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك ، كما قال تعالى (**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**)(٦٦) وقال ايضا : (**عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**)(٦٧) وكان فى أعظم درجات الكرم والسخاء وكان زاهدا فى الدنيا قانعا باليسير منها لايدخر شيئا ، وكان فى غاية الفصاحة ، واعطى جوامع الكلم ، وكان حليما صفوحا ، لايغضب الا لله تعالى ، متواضعا للمؤمنين ، عابدا لله ، مجاهدا فى سبيله متوكلا عليه ، وقد ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته واخلاقه الربانية من أول عمره الى آخره ماغير ولا بدل ، وهذا ما أشار اليه تعالى فى قوله (**وما أنا من المتكلفين**)(٦٨) والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طوال عمره، وقد كان فى هذه الخصال وغيرها من الاخلاق الكريمة ، فى كل واحدة منها فى الغاية القصوى من الكمال ولا يتفق ذلك لاحد من الخلق ، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى ، فكان اجتماع هذه الصفات والاخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته(٦٩)

ولهذا فانا نجد كثيرا من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام ، لما يعرفونه من أخلاقه ، وصدقه ، وسيرته العطرة : فهذه خديجة رضى الله تعالى عنها ، لما كانت تعلم من النبى ﷺ أنه الصادق الامين ، فعندما أخبرها بما لقيه من الوحى ، وقال لها(انى خشيت على نفسى) قالت (كلا والله مايخزيك الله ابدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق)(٧٠)

(٦٥) ايثار الحق على الخلق ص ٨٠
(٦٦) فاطر – الآية ٨
(٦٧) التوبة – الآية ١٢٨
(٦٨) ص – الآية ٨٦
(٦٩) انظر ايثار الحق على الخلق ص ٨٠
(٧٠) اخرجه البخارى – انظر : صحيح البخارى مع فتح البارى ج١ ص ٢٠

وكذلك هرقل ملك الروم ، فان النبى ﷺ لما كتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، طلب من كان في بلاده من العرب ، وكان أبو سفيان فى طائفة من قريش فى تجارة الى بلاد الشام فاستدعاهم هرقل الى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ودعا بترجمانه وشرع بسألهم عن أحوال النبى ﷺ فيصل بعد ماسمع منه الى نتيجة قاطعة : وهى أنا ماسمع من أحوال محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به وانه نبى مرسل ومن المفيد فى هذا المقام ان نثبت هذا الحوار الذى دار بين هرقل وابى سفيان كما نقله امام المحدثين واميرهم البخارى فى صحيحه لما فيه من العظة والعبرة والدليل على أن رسولنا الكريم عليه افضل الصلاة وأتم التسليم قد أنعم عليه ربه تبارك وتعالى بالحجج البالغة والبراهين القاطعة على صدقة الماثلة فى اخلاقه وصفاته واحواله فضلا عما ايده به من القرآن العظيم والمعجزات الباهرة : فقد قال البخارى رحمه الله تعالى (حدثنا ابو اليمان الحكم بن نافع قال : اخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال : اخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود أن عبد الله بن عباس اخبره ان أبا سفيان بن حرب اخبره أن هرقل أرسل اليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة(٧١) التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بأيلياء ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه

فقـــال :أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم انه نبى ؟

فقال أبو

سفيان : فقلت أنا اقربهم نسبا

فقـــال :أدنوه منى ، وقربوا اصحابه، فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه : قل لهم ،انى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبنى فكذبوه – فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه(٧٢) – ثم كان أول ماسألنى عنه أن :

قـــال :كيف نسبه فيكم

قلت : هو فينا ذو نسب

قال : فهل قال هذا القول منكم احد قط قبله ؟

قلت : لا

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا

قال : فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : ايزيدون ام ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون

(٧١) يعنى مدة صلح الحديبية

(٧٢) الكلام لابى سفيان

قال : فهل يرتد احد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟
قلت : لا
قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ماقال ؟
قلت : لا
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا، ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها
قال أبو سفيان : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة
قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم
قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه
قال : ماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا مايقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه، فذكرت انه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك : هل قال احد منكم هذا القول ، فذكرت لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتى بقول قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت : لو كان من آبائه ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر ، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت اعلم انه خارج ، لم أكن اظن انه منكم ، فلو انى اعلم انى اخلص اليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .....)(٧٣)

(٧٣) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ص ٢٦-٣١

الايمان بكتب الله عـز وجـل

ومن أركان الايمان ان نؤمن بالكتب التى انزلها الله على انبيائه ورسله ، فكما أن الله عز وجل قد انزل القرآن على محمد ﷺ فقد انزل كتبه من قبل على سائر الرسل

ومن هذه الكتب ما سماه الله لنا فى القرآن الكريم ، ومنها مالم يسم ، والذى اخبرنا به عز وجل منها :

١ – التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام ، حيث قال سبحانه :(**أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**)(١)

٢ – والانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، حيث قال تعالى :(**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراه ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**)(٢)

٣ – والزبور الذى نزل على داود عليه السلام قال تعالى(**وآتينا داود زبورا**)(٣)

٤ – والصحب التى انزلها الله على ابراهيم وموسى ، التى اخبر عنها الله تعالى بقوله :(**أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى ، الا تزر وازرة وزر اخرى وأن ليس للانسان الا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى ، وان الى ربك المنتهى**)(٤) وبقوله ايضا(**قد افلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى . ان هذا لفى الصحف الاولى ، صحف ابراهيم وموسى**)(٥)

واما الكتب الاخرى التى نزلت على سائر الرسل ، فلم يخبرنا الله تعالى عن اسمائها ، وانما اخبرنا سبحانه أن لكل نبى أرسله الله رسالة بلغها قومه ، فقال :(**كان الناس امة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**)(٦)

فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التى لم تسم اجمالا ، ولا يجوز لنا ان ننسب كتابا الى الله تعالى سوى مانسبه الى نفسه مما اخبرنا عنه فى القرآن الكريم

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى ، وتوحيد الله سبحانه فى ربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته ، وأن مانسب اليها مما يخالف ذلك انما هو من تحريف البشر وصنعهم ، قال تعالى عن التوراة :(**انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور**)(٧) وقال تعالى عن الانجيل : (**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**)(٨)

(١) المائدة – الآية ٤٤
(٢) المائدة – الآية ٤٦
(٣) الاسراء – الآية ٥٥
(٤) النجم – الآيات ٣٦ – ٤٢
(٥) الاعلى – الآيات ١٤ – ١٩
(٦) البقرة – الآية ٢١٣
(٧) المائدة – الآية ٤٤
(٨) المائدة – الآية ٤٦

ويجب علينا أن نؤمن بأن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى وأن الله عز وجل قد خصه بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة من أهمها :

١ — انه تضمن خلاصة التعاليم الالهية ، وجاء مؤيدا ومصدقا لما جاء فى الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته ، وجمع كل ماكان متفرقا فى تلك الكتب من الحسنات والفضائل ، وجاء مهيمنا ورقيبا ، يقر ما فيها من حق ، ويبين مادخل عليها من تحريف وتغيير قال تعالى(**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**)[٩] وانه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل مايلزمهم لسعادتهم فى الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة **وأثبت** فيها الاحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان

٢ ان القرآن هو الكتاب الربانى الوحيد الذى تعهد الله بحفظه فقال عز من قائل :(**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)[١٠] وقال ايضا : (**وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد**)[١١]

وهذه مزية **متفرعة** عن مزية اخرى ،وهى ان القرآن انزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة وليس خاصا بقوم معينن كما كانت تنزل الكتب السابقة ، فكان حفظه من التحريف ، وصيانته من عبث الناس ، ليبقى مافيه حجة الله على الناس ، قائمة حتى يرث الله الارض ومن عليها

وأما الكتب الاخرى ، فقد وجه الكلام فى كل واحد منها الى امة خاصة دون سائر الامم وهى وان اتفقت فى اصل الدين ، الا ان مانزل فيها من الشرائع والاحكام كان خاصة بأزمنة معينة **وأقوام** معينين قال تعالى(**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**)[١٢] لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أى منها على مدى الازمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن بل اخبر عز وجل فى اخر كتبه عن التحريف الذى وقع على تلك الكتب : فعن التحريف والتغيير الذى أدخله اليهود على التوراة قال سبحانه (**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، وهم يعلمون**)[١٣] وقال ايضا (**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**)[١٤]

وأما عن التحريف الذى ادخله النصارى على الانجيل قال تعالى (**ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ، الى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون . ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**)[١٥]

(٩) المائدة — الاية ٤٨
(١٠) الحجر — الاية ٩
(١١) فصلت — الايتان ٤١ — ٤٢
(١٢) المائدة — الاية ٤٨
(١٣) البقرة — الاية ٧٥
(١٤) النساء — الاية ٤٦
(١٥) المائدة — الايتان ١٤ ، ١٥

هذا ومن التحريفات التى أدخلها اليهود والنصارى فى دينهم ما زعمه اليهود من أن **العزير** ابن الله سبحانه ، وما زعمه النصارى أن المسيح ابن الله قال تعالى (**وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله انى يؤفكون**)[16]

فصحح لهم القرآن هذا الانحراف الذى صنعوه بأنفسهم ،**فبين** لهم ان الله سبحانه منزه عن ان يكون له ولد ، فقد تعالى (**قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد**)[17] وقرر أن الرسل جميعا بشر ، خصهم الله بالوحى ، وبما يؤهلهم لتلقيه وتبليغه للناس ،**فقال** سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ (**قل ، انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد**)[18]

ومن التحريف الذى اقترفه النصارى ، واخبرنا به الله عز وجل في القران الكريم ما أدخلوه على حقيقة النبوة ، من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم ، وقول بعضهم بالتثليث ، قال تعالى : (**لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم**)[19] وقال ايضا : (**لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد**)[20] فجاء القرآن الكريم ، وبين هذا التحريف وبين العقيدة السليمة من عيسى وامه ، فقال تعالى : (**ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الايات ، ثم انظر انى يؤفكون**)[21]

والحق الذى لايمارى فيه منصف انه لايوجد اليوم على ظهر الارض كتاب تصلح نسبته الى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم ، يدل على هذه الحقيقة ادلة حسية فضلا عما اخبر به القرآن عن التحريف الواقع فى الكتب الموجودة من هذه الادلة :

أ – ان الكتب الذى نزلت قبل القرآن ، قد ضاعت نسخها الاصلية ، ولم يبق فى ايدى الناس الا تراجمها ، اما القرآن فانه لايزال محفوظا بسوره وآياته وكلماته وحركاته كما تلاه جبريل على رسول الله ﷺ وكما تلاه رسول الله ﷺ على صحابته رضوان الله عليهم[22]

ب – أن هذه الكتب قد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس : من تفسير وتاريخ وسير الانبياء وتلاميذهم ، واستنباطات الفقهاء ، فلا يعرف فيها كلام الله من كلام البشر ، وأما القرآن فهو جميعه كلام الله تعالى ، ولم يختلط به غيره من حديث الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة أو

(١٦) التوبة – الاية ٣٠
٥٤
(١٧) سورة الاخلاص
(١٨) الكهف – الاية ١١٠
(١٩) الكهف – الاية ٧٢
(٢٠) المائدة – الاية ٧٣
(٢١) المائدة – الاية ٧٥
(٢٢) مبادىء الاسلام . المودودى ص ٧٧

غيرهم[٢٣] قال ابو الوفا على بن عقيل : (اذا اردت ان تعلم ان القرآن ليس من قول رسول الله ﷺ انما هو ملقى عليه ، فانظر الى كلامه كيف يمتاز عن القرآن وتلمح ما بين الكلامين والأسلوبين ومعلوم ان كلام الانسان يتشابه ، وما للنبى ﷺ كلمة تشاكل القرآن)[٢٤] وقال ايضا(ومن اعجاز القرآن انه لايمكن احد ان يستخرج منه اية قد اخذ معناها من كلام قد سبق فانه مازال الناس يكشف بعضهم عن بعض ، فيقال مثلا المتنبى اخذ من البحترى)[٢٥]

ج — ان تلك الكتب ليس منها كتاب تصح نسبته الى الرسول الذى ينسب اليه فليس لاى منها سند تاريخى موثوق فالاسفار الموجودة ضمن مايسمى بالعهد القديم ويطلق عليه التوراة انما دونت بعد موسى عليه السلام بقرون عديدة يقول محمد فريد وجدى نقلا عن دائرة معارف لاروس ماخلاصته (العلم العصرى ولاسيما النقد الالمانى اثبت بعد ابحاث مستفيضة فى الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات ان التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام وانها عمل احبار لم يذكروا اسمهم ، الفوها على التعاقب ، معتمدين فى تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل اسر بابل ، بل ذهب بعض العلماء الى ان هذه الاسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الاسرائيلية ولكنها تحتوى على اشارات ورموز وحكايات)[٢٦]

واما القرآن العظيم فهو الكتاب الوحيد الذى ثبتت نسبته بصورة قطعية الى الرسول الذى أوحى اليه ، وهو محمد ﷺ فقد نقل هذا الكتاب بسورة واياته وطريقة ترتيبها وكيفية تلاوته الى كل عصر جاء بعد عصر نزوله بالتواتر ، بحيث لايشك فى ان القرآن الذى نتلوه هو الذى نزله الله على رسوله الكريم ﷺ[٢٧]

ومن الادلة على وقوع التحريف فى تلك الكتب تعدد نسخها واختلافها فيما نقلته من الاقوال والاراء[٢٨]

ومن القرائن القاطعة على وقوع الترحيف فى هذه الكتب ماتضمنته من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عن الخالق سبحانه وعن رسله الكرام عليهم السلام فانك تجد فيها تشبيه الخالق بالانسان والقدح بالانبياء بما يمس شرفهم ويتنافى مع عصمتهم[٢٩]

(٢٣) المرجع السابق

(٢٤) انظر : الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٢٧٠

(٢٥) المرجع السابق

(٢٦) انظر : العقائد الاسلامية لنديم الملاح ص ٥٧

(٢٧) مبادىء الاسلام — المودودى ص ٧٨

(٢٨) انظر العقائد الاسلامية — سيد سابق ص ١٦٨ فقد جاء فيها ، ويكفى لحصر التدليل على التحريف فى الاناجيل المتداولة بأيدى النصارى الان انها أربعة اختيرت من نحو سبعين انجيلا ، وهذه الاناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معرفون ، وأسماؤهم مكتوبة عليها وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هى رأى بولس دون سائر الحواريين . ودون أقرب الأقربين الى عيسى . وقد وجد فى مكتبة أمير من الأمراء فى باريس نسخة من انجيل برنابة . وقد طبعته مطبعة المنار بعد ترجمته الى العربية وهو يخالف الاناجيل الأربعة مخالفة كبيرة .

(٢٩) من ذلك ما جاء فى التوراة المتداولة فى سفر التكوين ٢٢/٣ ، ففيه (وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا ، عارفا بالخير والشر) وفيه ايضا (فحزن الرب انه عمل الانسان وتأسف فى قلبه) ومما جاء فيه ايضا مما يمس شرف الانبياء ويتنافى مع عصمتهم ما قالوه عن ابراهيم عليه السلام انه كذاب .. وان لوطا زنى بابنتيه . وان هارون دعا الأسرائيليين الى عبادة العجل . وان داود زنا ، وأن سليمان عبد الاصنام ارضاء لزوجته ، فهل ثم دليل على التحريف اقوى من هذا — نقلا عن العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ١٦٧

وازاء هذا التحريف والتغيير الذى طرأ على الكتب السابقة فان الايمان بها يكون بالتصديق انها من عند الله فى اساسها نزلها على رسله لنفس الغرض الذى انزل من اجله القرآن ، ولا نؤمن بشئ من محتوياتها انه من عند الله الا بما ذكره القرآن فيجب علينا أن نؤمن بأنه كلام الله الخالص ، وهو الحق ، وان كل لفظ فيه محفوظ ، ويجب اتباع امره ، واجتناب نهيه ، وتصديق خبره ، ورفض مايخالفة .

الايمان باليـــوم الآخـــر

ومعناه بصورة اجماليه : الايمان بكل ما اخبر به الله عز وجل فى كتابه واخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنه القبر وعذابه ونعيمه والبعث والحشر والصحف والحساب والميزان والحوض والصراط والشفاعة والجنة والنار وما اعد الله تعالى لاهلهما جميعا

اهتمام القرآن بهذا الركن وحكمته

ولقد حفل القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر واهتم بتقريره فى كل موقع ونبه اليه فى كل مناسبة واكد وقوعه بشتى الاساليب العربية

ومن مظاهر هذا الاهتمام بهذا اليوم العظيم فى كتاب الله انه كثيرا ما ربط الايمان به بالايمان بالله عز وجل ومن امثلة ذلك : قوله تعالى (**ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر**)(١) وقوله تعالى : (**من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون**)(٢) وقوله تعالى (**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**)(٣) وقوله تعالى (**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر**)(٤) وقوله تعالى (**اعبدوا الله وارجوا اليوم الاخر ولا تعثوا فى الارض**)(٥) وأمثال هذه الايات كثير جدا فى كتاب الله عز وجل

ومن مظاهره ايضا اكثار القرآن من ذكر اليوم الاخر حتى انك لاتكاد تمر على صحيفة من صحائف القرآن الا وتجد فيها حديثا عن اليوم الاخر وماسيكون فيه من الاحداث والاحوال بأساليب كثيرة ومتنوعة كذلك تجد القرآن يفصل احوال ذلك اليوم تفصيلا قلما تجده فى امور الغيب الاخرى

ومن مظاهره ايضا كثرة ماسماه الله من الاسماء التى يدل كل واحد منها على ماسيقع فيه من الاهوال فمن اسمائه فى القرآن : القيامة والساعة ، والآخرة ، ويوم الدين ، ويوم الحساب ، ويوم الفتح ، ويوم التلاق ، ويوم الجمع ، ويوم التغابن ويوم الخلود ، ويوم الخروج ، ويوم الحسرة ، ويوم التناد ، والآزفة ، والطامة ، والصاخة ، والحاقة ، **والغاشية** ، **والواقعة وغيرها**(٦)

(١) البقرة الاية ١٧٧
(٢) البقرة – الاية ٦٢
(٣) البقرة – الاية ٢٣٢
(٤) التوبة – الاية ٢٩
(٥) العنكبوت – الاية ٢٦
(٦) انظر: العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٦١ – ٢٦٤

وأما حكمة ذلك الاهتمام البالغ بهذا الركن فمنها :

أن الايمان باليوم الاخر له اثر عظيم فى حياة الانسان ، ذلك أن الايمان به وبما فيه من جنه ونار وحساب وعقاب وثواب وفوز ، وخسران له اشد الاثر في توجيه الانسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله عز وجل ، وشتان مابين اثنين : احدهما لايعتقد ببعث ولاحساب على اعماله واقواله ، ولايفيده غير مصلحته الشخصية ومنفعته الذاتيه ، واخر يعتقد بيوم يحاكم فيه الانسان على اعماله واقواله امام أعدل العادلين فيثاب على الخير ، ويعاقب على الشر ، فالأول تفلت من أى ضابط سوى هواه وشهوته ، والغاية عنده غاية انانية تبرر أية وسيلة وأى خلق وأى عمل ، مهما كان ضرره ، والآخر منضبط في حدود الحق والخير والصلاح ، وهى الامور التى لها وزن واعتبار عند الله فى ذلك اليوم كما قال تعالى (**والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**)[٧]

ويشير الى هذه الحكمة اسلوب القرآن فى الربط بين الايمان باليوم الآخر والعمل الصالح فى كثير من الاحيان ، من ذلك قوله تعالى :(**أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين**)[٨] وقوله عز وجل : (**انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**)[٩] وقوله ايضا(**لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون**)[١٠] وقوله تعالى (**لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**)[١١] وقوله (**لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لم كان يرجو الله واليوم الآخر**)[١٢] وقوله (**ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**)[١٣] وقوله (**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون**)[١٤] وغيرها كثير

فانه لما كان الانسان مفطورا على طلب المصلحة لنفسه ودفع المفسدة عنها كان الايمان باليوم الآخر مقويا للوازع النفسى عنده ذلك الوازع الذى يرغب فى الخير ويصد عن الشر . ولذلك كانت عناية القرآن بكثرة التذكير به والتفنن فى تصويره حتى يتعمق ذلك الوازع فى قلب المؤمن ويشتد تأثيره

ولعل من حكمة الاهتمام البالغ بالتذكير باليوم الاخر كثرة نسيان العباد له ، وغفلتهم عنه ، بسبب تثاقلهم الى الارض، وحبهم لمتاع الدنيا، فيكون الايمان به وبما فيه من عذاب ونعيم مخففا من الغلو فى حب الدنيا، فيعلم العباد ان شهوات الدنيا كلها لاتستحق منهم الطلب والجهد والتنافس فيها ، وان الذى يستحق ذلك منهم انما هو ما أعد لهم فى ذلك اليوم العظيم ويشير الى هذا المعنى قوله تعالى (**يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل**)[١٥]

(٧) الاعراف - الايتان ٨ ، ٩
(٨) الماعون - الايات ١ - ٣
(٩) التوبة - الاية ١٨
(١٠) التوبة - الايتان ٤٤ - ٤٥
(١١) المجادلة - الاية ٢٢
(١٢) الممتحنة - الاية ٦
(١٣) الطلاق - الاية ٢
(١٤) الانعام - الاية ٩٢
(١٥) التوبة - الاية ٣٨

ولعل من حكمته ايضا ان وجود ذلك اليوم كان وما يزال يثير استغراب الكافرين وتعجبهم ، لما يرونه ببصيرتهم القاصرة ، من مخالفة البعث لما يرونه من تحول الى رفات وعظام بعد الموت فقال تعالى عن امثال هؤلاء (**ق ، والقرآن المجيد ، بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب : أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد**)(١٦) فبين لهم الله سبحانه فى كثير من الايات التى سنذكر بعضها فيما بعد ان هذا الحس الذى يواجهون به هذه الحقيقة حس عاجز وقاصر لان أمثال البعث فى حياة الانسان كثيرة ولكنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

ادلة الايمان باليوم الاخر ورد شبه المنكرين له :

ولقد دل على الايمان باليوم الآخر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما يدل عليه العقل والفطرة السليمة فأكثر سبحانه من ذكره فى كتابه واقام عليه الادلة ورد شبه المنكرين للبعث فى كثير من المواضع كما فصل فى القرآن امور ذلك اليوم وحوادثه تفصيلا لم يسبق له مثيل فى الكتب السابقة مع ان كل رسول ارسله الله بشر قومه وأنذرهم بهذا اليوم العظيم وكفر كل من ينكره او يشك فيه

قال تعالى **الله لا اله الا هو ، ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه**)(١٧) وقال : (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ,ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)(١٨) وقال ايضا :(**من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا**)(١٩)

ويخبرنا القرآن عن نوح عليه السلام انه قال لقومه : (**والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا**)(٢٠) وعن ابراهيم عليه السلام انه قال : (**والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين**)(٢١) وقال سبحانه لموسى عليه السلام (**ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى**)(٢٢) وقد امر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ ان يقسم به على البعث فى اكثر من موضع من ذلك قوله تعالى (**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربى لتبعثن** .)(٢٣)

والذين ينكرون البعث انما يكذبون رسل الله جميعا ، اولئك الذين قامت الادلة العقلية والحسية القاطعة على صدقهم فى كل ما اخبروا به.وتكذيبهم فى اى خبر حجر على العقل الذى حكم بصدقهم وتكذيب له وعناد لامعنى له

(١٦) ق – الايات ١ – ٣

(١٧) النساء – الاية ٨٧
(١٨) البقرة – الاية ١٧٧
(١٩) النساء – الاية ١٣٦
(٢٠) نوح – الايتان ١٧ ، ١٨
(٢١) الشعراء – الاية ٨٢
(٢٢) طه – الايتان ١٥ ، ١٦
(٢٣) التغابن – الاية ٧

والمنكرون للبعث ليس لهم دليل على انكارهم ذلك انه امر من أمور الغيب الذى لايعلمه الا الله والضابط في هذه الامور انه لاسبيل لاحد فى اثباتها أو انكارها الا سبيل واحد هو اعلام الله عز وجل فمن قامت الحجج القاطعة على تلقيه من عند الله تعالى، فهو الصادق فيما يخبر به عن شئ من هذه الامور [(٢٤)] وهذا أمر لم يثبت الا للرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، فهم الذين أيدهم الله بالمعجزات، واطلعهم على بعض الغيب وقد تقدم اتفاقهم على الاخبار باليوم الآخر

وانما اثار المنكرون للبعث بعض الشبهات والشكوك حول وجود ذلك اليوم كاستبعادهم العودة الى الحياة بعد تحولهم الى رفات وعظام وتراب ، فقالوا ، كما اخبر الله عنهم **(أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد)** [(٢٥)] وقال تعالى **(وقالوا ، ان هي الا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون)** [(٢٦)]

وشبههم جميعا لاتعدو الاستبعاد والاستعظام والتعجب

وقد رد الله سبحانه على هذه الشبه وبين تفاهتها فى اكثر من موضع فى كتابه العزيز ، وبين لهم ان الايمان بالمعاد لاينكره العقل بل يؤيده ولا يخالف المعهود بل له امثلة فى حياة الناس وشواهد من صنع الخالق من ذلك :

١ – قال تعالـى :

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إئنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى ان يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده وتظنون أن لبثتم الا قليلا) [(٢٧)]

فانظر الى هذه الشبهات التى اثاروها وما يثيره المنكرون فى كل عصر لايتعداها : انهم يستعظمون على الله تحويل ماتؤول اليه الاجسام من الرفات والعظام الى خلق جديد يحس ويشعر ويستكثرون عليه قدرته على ذلك ، ويستبعدون هذا الأمر لانهم لا يعلمون متى هو وهى شبهات – كما ترى – مبعثها الجهل بطبيعة

(٢٤) وهذا الضابط بدهية من بدهيات العقول ، فاننا نعلم بالبديهة انه لايمكن لاحد أن يثبت أو ينفي وجود شيء فى مكان أو زمان الا بأن يطلع أو يخبره مطلع اذا كان وجود هذا الشيء أو عدمه لا يتناقض مع العقل ، وليس مستحيلا فى حكمة ، فلو أن شخصا من العامة اثبت أو نفى وجود نجم فى موقع من مواقع السماء ولم يخبره عالم فلكى ، حكمنا بكذبه ، وكذلك أى شخص يزعم وجود اليوم الاخر ، نحكم بكذبه ، حتى ولو لم يخبرنا بوجوده احد ، فكيف وقد اخبر بذلك من يستحيل فى حقه الكذب ، وهم الانبياء والرسل ، والناس كلهم بالنسبة لعالم الغيب عوام ، والمطلع عليه هو الله وحده ، فلا تتبع فى شأنه الا من علمهم الله وهم رسله الكرام .

(٢٥) ق – الاية ٣

(٢٦) الجاثية – الاية ٣٤

(٢٧) الاسراء – الايات ٤٩ – ٥٢

الحياة والموت ، والغفلة عن قدرة الله عز وجل والتعامى عن اثار هذه القدرة المطلقة فى الانشاء من العدم وكان يكفيهم – لو كانوا يعلقلون – ان يتذكروا قدرة الله عندما خلقهم أول مرة ؛ ولم يكونوا شيئا، ليوقنوا بصدق البارى فيما اخبرهم عن المعاد والحساب والثواب والعقاب ، فالقضية بسيطة ، والجواب مفحم مع بساطته وبداهته : فان الانسان قد وجد نفسه مخلوقا بعد أن لم يكن ، فلا بد له من خالق اوجده من العدم ، ثم تحول من حال الى حال بمفارقة الحياة فلا بد من فاعل لهذا التحول وليس هو الا الله الذى خلق اول مرة ولو كان غيره لاستطاع ان يدفع عن نفسه الموت فاذا اخبر بعد ذلك هذا الخالق المحيى المميت بأنه سيحيى الانسان مرة اخرى ويعيد خلقه كانت مناقشته فى ذلك عنادا واستكبارا قال تعالى (**قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن اكثر الناس لايعلمون**)(٢٨)

٢ – وقال تعالى :

(**وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال ، من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل، يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم**)(٢٩)

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية فى شرح هذه الآيات الكريمة :(فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتى بأحسن من هذه الحجة ، أو بمثلها بالفاظ تشبه هذه الالفاظ فى الايجاز ووضوح الادلة وصحة البرهان لما قدر فانه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابا ، فكان فى قوله تعالى (ونسى خلقه) ما وفى الجواب واقام الحجة وازال الشبهة ولما اراد سبحانه تأكيد الحجة وزيادة تقريرها قال (قل ، يحييها الذى أنشأها أول مرة) فاحتج بالابداء على الاعادة وبالنشأة الاولى على النشأة الاخرى اذ كل عاقل يعلم ضروريا ان من قدر على هذه قدر على هذه وانه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الاولى اعجز وأعجز . ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله (وهو بكل شئ عليم) فهو عليم بتفاصيل الخلق الاول وجزئياته ومواده وصورته فكذلك الثانى . فاذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه ان يحى العظام وهى رميم ؟ أم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام اذا صارت رميما عادت بطبيعتها باردة يابسة والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة ... فقال سبحانه (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون) فأخبر سبحانه باخراج هذا العنصر الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الاخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة الذى يخرج من الشئ ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصى عليه هو الذى يفعل ما أنكره الملحد ودفعه . ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشئ الإجل الاعظم على الأيسر الاصغر ، فان كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير اقدر وأقدر . فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية اشد اقتدارا فقال سبحانه (او ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم)

(٢٨) الجاثية – الاية ٢٦

(٢٩) يس – الايات ٧٨ – ٨١

فالذى أبدع السموات والارض على جلالتهما ، وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خلقهما ، اقدر على ان يحيى عظاما قد صارت رميما ، فيردها الى حالتها الاولى)[٣٠]

٣ - وقال عز وجـل :

(يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فأنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الارحام مانشاء الى اجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا اشدكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وانه يحيى الموتى ، وانه على كل شىء قدير ، وان الساعة آتيه لاريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور)[٣١]

فتدبر هذه الآيات الكريمات من سورة الحج ، فان فيها من الادلة على البعث والآيات البينات على قدرة الله فى إحياء الموتى ، ما يمحو كل شك من القلوب ، حول هذه الحقيقة ، ويزيل كل استغراب ، ويفند شبهات المعاندين .

أ - ففيها أولا دليل انشاء الخلق ، وبدئهم من تراب ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة وقد تقدم الكلام عن هذا الدليل

ب - وفيها ابراز لمظهر من مظاهر قدرة الله فى خلق الانسان ، ونقله من طور الى طور ، وحال الى حال اخرى تختلف عن الاولى كل الاختلاف . فان من نقله من النطفة الى العلقة ، ثم الى المضغة ، ثم شق سمعه وبصره ، وركب فيه الحواس والقوى ، والعظام والاعصاب ، وغيرها ثم أحكم خلقه غاية الاحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التى هى أتم واحسن الاشكال ، كما قال تعالى (**لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم**)[٣٢] كيف يعجز عن بعثه واعادة الحياة اليه ؟ فليس هذا الا عملية نقل من حال الى حال اخرى والمعاند يرى أمثالها فى نفسه وفى كل انسان على وجه هذه الارض

ولقد نبه الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى بعد تفسيره للايات السابقة الى معنى لطيف تضمنته الايات فقال (وان هذه الاطوار التى يمر بها الجنين ثم يمر بها الطفل بعد ان يرى النور لتشير الى ان الارادة المدبرة لهذه الاطوار ستدفع بالانسان الى حيث يبلغ كماله الممكن فى دار الكمال ، اذ ان الانسان لايبلغ كماله فى حياة الارض فهو يقف ثم يتراجع « لكى لايعلم من بعد علم شيئا » فلا بد من دار اخرى يتم فيها تمام الأنسان

فدلالة هذه الاطوار على البعث مزدوجه .. فهى تدل على البعث من ناحية ان القادر على الانشاء قادر على الاعادة وهى تدل على البعث لان الارادة المدبرة تكمل تطوير الانسان فى الدار الاخرة

(٣٠) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٠ ، ٤٦١

(٣١) الحج - الايات ٥ - ٧

(٣٢) التين - الاية ٤

وهكذا تلتقى نواميس الخلق والاعادة ونواميس الحياة والبعث ونواميس الحساب والجزاء، وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر الذى ليس فى وجوده جدال)[٣٣]
هذا وفى ذكر اطوار الانسان وتكونه من النطفة والعلقة لفتة اخرى : ففيه توجيه انظار المعاندين المنكرين للبعث واحياء الموتى الى ان هذا الفعل الربانى ماثل فى كل واحد منهم وفى كل انسان فانه قبل ان يكون خلقا سويا كان نطفة من ماء مهين لاقيمة لها وعلقة ومضغة اى قطع من لحم لاشكل لها ولاتخطيط وجيمعها مراحل حقيرة اشبه مايكون فيها الانسان بالميت ومع ذلك فان الله سبحانه يخلق فيها الحياة ، ويشكلها ويودع فيها اسباب الحياة الى ان تغدو فى نهاية الامر بشرا سويا يفكر ويشعر ويخاصم ويجادل فما اشبه هذا الصينع الربانى باحياء الموتى الذى يستنكره المنكرون للبعث ولذلك قال عز وجل : (**الم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، اليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى**)[٣٤]

ج – وفى الآيات السابقة دليل آخر على البعث وآية إخرى على قدرة الله فى احياء الموتى : هذه الارض القاحلة لاترى فيها اثرا لحياة ولاينبت فيها شئ فاذا انزل الله عليها المطر ظهرت فيها الحياة وانبتت من الزروع ، واشتات النبات فى اختلاف الوانها وطعومها وروائحها واشكالها ومنافعها ، وكما قال تعالى (**ان الذى أحياها يحيى الموتى ، انه على كل شئ قدير**)[٣٥] وقد سئل رسول الله ﷺ كيف يحى الموتى ؟ ومآية ذلك فى خلقه ؟ قال (اما مررت بوادى اهلك ممحلا ؟ قال : بلى : ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : بلى، قال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه)[٣٦]

٤ – وقال تعالى

(**أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لاترجعون**)[٣٧] وقال ايضا (**ايحسب الانسان ان يترك سدى**)[٣٨]

فهاتان الايتان وأمثالهما تقرران ان الايمان بالمعاد والحساب والجزاء هو من مقتضيات توحيد الله فى صفاته الكاملة واسمائه الحسنى فهذا الركن من لوازم الركن الاول من اركان الايمان ومن كفر به لم يكن مؤمنا بالله عز وجل لان ذلك يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله فى خلقه وتعطيل صفاته سبحانه وتعالى

ومن لوازم هذا الكفر احتقار الانسان لنفسه ، باعتقاده انه خلق عبثا لا لحكمة بالغة . وان وجوده فى الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير الملئ بالنكد والهموم والمصائب والظلم والبغى والآثام وانه يترك سدى فلا يجزى الظالم بظلمه والعادل بعدله والمصلح باصلاحه والمفسد بافساده

(٣٣) فى ظلال القرآن – المجلد الخامس ص ٥٨٣

(٣٤) القيامة – الايات ٢٧ – ٤٠

(٣٥) فصلت – الاية ٣٩

(٣٦) رواه احمد وابو داود وابن ماجة – انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٨ وصحيح الجامع الصغير – المجلد الاول ص ٤٢٠

(٣٧) المؤمنون – الاية ١٦

(٣٨) القيامة – الاية ٢٦

والمسئ باساءته فالايمان بالبعث واليوم الاخر هو الذى يليق بجلال الله وعدله وحكمته ويحكم به العقل وتطمئن اليه الفطرة السليمة)(٣٩)

تفصيل الايمان باليوم الاخر

واذا كان الايمان باليوم الاخر من اهم الاركان التى يقوم عليها الايمان فانه لايتحقق ولا يكون تاما وكاملا الا بأمرين :

الاول ، ان يؤمن العبد باليوم الآخر بصورة اجمالية ، وهذا هو الحد الادنى لتحصيل هذا الركن من اركان الايمان

والثانى ، ان يؤمن بكل ماأخبره به رسول الله ﷺ من أمور الغيب التى تكون بعد الموت ونذكر فيما يلى أهم ماوردت به الاحاديث الصحيحة والآيات الكريمة من هذه الامور

١ – فتنة القبر وسؤال الملكين :

فيجب ان نؤمن بما اخبر به الرسول ﷺ من فتنة القبر وسؤال الملكين للانسان عن ربه ودينه ونبيه ، فقد اخبر عليه الصلاة والسلام فى الاحاديث الصحيحة ان الناس يمتحنون فى قبورهم فيقال للعبد : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول المؤمن : ربى الله ، والاسلام دينى ، ومحمدا ﷺ نبيى ، وأما المرتاب فيقول : لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيضرب ويعذب

ومن الاحاديث الواردة فى ذلك :

ما اخرجه البخارى ومسلم عن أسماء رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ما من شئ لم أكن أريته الا رأيته فى مقامى ، حتى الجنة والنار فأوحى الى انكم تفتنون فى قبوركم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال ، يقال : ماعلمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا واتبعنا ، هو محمد ، ثلاثا ، فيقال : نم صالحا ، قد علمنا انك كنت موقنا به وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)(٤٠)

وما أخرجه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ان العبد اذا وضع فى قبره ، وتولى عنه اصحابه ، انه ليسمع قرع نعالهم ، قال : يأتيه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : اشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقال له : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنه ، قال نبى الله ﷺ : فيراهما جميعا ، قال قتادة : (وذكر لنا انه يفسح له فى قبره سبعون

(٣٩) الوحى المحمدى ص ١٧٨ ، ١٧٩ . مبادىء الاسلام للمودودى ص ٩١. العقائد الواسطية ص ١٧٩ ٢٨٠ . شرح العقيد الواسطية لمحمد خليل هراس ص ١٢٩ ، ١٣٠

(٤٠) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج١ ص ١٤٨ وهو حديث متفق عليه واللفظ للبخارى

ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون ، وأما المنافق الكافر ، فيقال له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، كنت أقول مايقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[٤١]

وما أخرجه البخارى ومسلم : عن البراء بن عازب رضى الله عن النبى ﷺ قال (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، قال : نزلت فى عذاب القبر ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبيىَ محمد ﷺ ، فذلك قوله عز وجل : يثبت الله الذين آمنو بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)[٤٢]

وهناك أحاديث صحيحة كثيرة وردت باثبات فتنة القبر وسؤال الملكين

٢ - عذاب القبر ونعيمـــه :

وبعد فتنة القبر يجب ان نؤمن بما أخبر به الصادق ، عليه الصلاة والسلام ، من عذاب القبر ونعيمه ، وقد تظاهرت على هذا الامر دلائل من الكتاب والسنة قال تعالى (**وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ، ادخلوا آل فرعون اشد العذاب**)[٤٣]

فقد توعد الله سبحانه ال فرعون بنوعين من العذاب :

الاول : أشار اليه بقوله تعالى (**النار يعرضون عليها غدوا وعشيا**)

والثانى : اشار اليه بقوله تعالى :(**ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب**) وقد عطف الثانى على الاول، والعطف يقتضى التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه ، فلا بد أن يكون المشار اليه اولا غير الثانى . فاذا كان العذاب الثانى بعد قيام الساعة فلا بد ان يكون الاول واقعا بهم مابين الموت والنشور وهو عذاب القبر

وأشار الله عز وجل الى عذاب يكون بعد الموت فى قوله تعالى :(**اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا انفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون**)[٤٤] فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية انه قال : هذا عند الموت ، والبسط الضرب ، يضربون وجوهه

(٤١) متفق عليه - انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٢٠٣ وصحيح البخارى مع فتح البارى ج ٣ ص ١٨٤

(٤٢) ابراهيم - الآية ٢٧ . والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٢٠٤ وصحيح البخارى مع فتح البارى ج ٢ ص ١٨١

(٤٣) غافر - الآية ٤٥

(٤٤) الانعام - الآية ٩٣

وأدبارهم. قال ابن حجر : ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال (**فيكف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**)[٤٥] ثم قال : (هذا وان كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، وانما اضيف العذاب الى القبر لكون معظمه يقع فيه)[٤٦]

وأما الاحاديث الصحيحة المثبتة لعذاب القبر فكثيرة جدا تبلغ حد التواتر ، يقول النووى فى شرحه لصحيح مسلم :(اعلم ان مذهب اهل السنة اثبات عذاب القبروقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنه ، قال تعالى :(**النار يعرضون عليها غدوا وعشيا**) وتظاهرت به الاحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ من رواية جماعة من الصحابة فى مواطن كثيرة. ولا يمتنع فى العقل ان يعيد الله تعالى الحياة فى جزء من الجسد ، ويعذبه ، واذا لم يمنعه العقل ، وورد به الشرع وجب قبوله واعتقاده)[٤٧]

وقد أورد الامام مسلم فى صحيحه أحاديث كثيرة فى اثبات عذاب القبر، وسماع النبى ﷺ من يعذب فيه ، وسماع الموتى قرع نعال دافنيهم ، وكلامه ﷺ لا هل القليب ، وقوله : ماأنتم بأسمع منهم ، الفسح للميت فى قبره ان كان من الناجين ، وعرض مقعده من الجنة أو النار عليه ، وغير ذلك[٤٨]

ومن الاحاديث الواردة فى ذلك مارواه مسلم فى صحيحه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلة له ، ونحن معه ، اذ حادت به فكادت تلقيه واذا بقبر سته أو خمسة أو اربعة ، فقال ﷺ : من يعرف أصحاب هذه الاقبر ؟ فقال رجل : أنا قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا فى الاشراك ، فقال : ان هذه الامة تبتلى فى قبورها فلولا ان لا تدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، فقالوا : نعوذ بالله من عذاب النار . فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالو نعوذ بالله من فتنة الدجال)[٤٩]

ومن ذلك ما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : مر النبى ﷺ على قبرين : فقال ، انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، ثم قال : بلى ، أما احدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما احدهما فكان لا يستتر من بوله[٥٠]

ومن ذلك أيضا ما أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال :(ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، ان كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة ، وان كان من اهل النار فمن اهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[٥١]

وأما كيفية عذاب القبر ونعيمه ، وكيفية عودة الروح الى الميت ، فلا يجوز فيه الزيادة على ماصح عن رسول الله ﷺ يقول شارح العقيدة الطحاوية (وقد تواترت الاخبار عن رسول الله ﷺ فى ثبوت

(٤٥) محمد – الاية ٢٧
(٤٦) انظر فتح البارى ج ٣ ص ١٨٠
(٤٧) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٧ ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٤٨) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٢٠٠ – ٢٠٧
(٤٩) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٢٠٢
(٥٠) متفق عليه واللفظ للبخارى – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٣ ص ١٨٨
(٥١) متفق عليه – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٣ ص ١١٨ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٢٠٠

عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك اهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايمان به ، ولا نتكلم فى كيفيته ، اذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لاعهد له به فى هذه الدار والشرع لايأتى بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتى بما تحار فيه العقول ، فانعودة الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا ، بل تعاد الروح اليه إعادة غير الاعادة المألوفة فى الدنيا .

واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أو لم يقبر ، اكلته السباع او احترق حتى صار رمادا ونسف فى الهواء أو صلب أو غرق فى البحر وصل الى روحه وبدنه من العذاب مايصل الى المقبور ، وما ورد من اجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو ذلك فيجب ان يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وماقصده من الهدى والبيان)(٥٢)

ويقول ابن القيم :(مذهب سلف الامة وأئمتها أن الميت اذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وان ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وان الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبه ، وانها تتصل بالبدن احيانا ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم اذا كان يوم القيامة الكبرى اعيدت الارواح الى الاجساد وقاموا من قبورهم لرب العباد ، ومعاد الابدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى)(٥٣)

٣ - أشراط الساعـــة :

ويجب علينا ان نؤمن أن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن موعدها لايعلمه الا الله أخفاه عن الناس كلهم ، بما فيهم الرسل والانبياء ، وأنه ليس لاحد من سبيل الى معرفة مابقى من عمر الدنيا ، قال تعالى :(**يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل : انما علمها عند ربى ، لايجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والارض ، لاتأتيكم الا بغته ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل : انما علمها عند الله ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون**)(٥٤)

ولكن يجب ان نؤمن بما ثبت عن رسول الله ﷺ من علاماتها وأشراطها

هذا وقد صح عن رسول الله ﷺ انه ذكر للساعة علامات صغرى معظمها يدور حول فساد الناس فى آخر الزمان ، وظهور الفتن بينهم ، وبعدهم عن هدى الله وطريق الرسل ، وعلامات كبرى

فأما العلامات الصغرى فقد ورد فيها جملة من الاحاديث الصحيحة نذكر منها :

(٥٢)شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥١ ، ٤٥٢
(٥٣) العقائد الاسلامية - سيد سابق ص ٢٣٧
٥٤/ الاعراف - الاية ١٨٧

أ – ماأخرجه البخارى ومسلم من قول الرسول ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) ، وأشار بالسبابة والوسطى[٥٥] فهذا يدل على أن بعثة الرسول ﷺ وختم النبوة والرسالة به من علامات قرب الساعة ، ففى الحديث دلالة على ان النبى ﷺ ليس بينه وبين الساعة نبى أخر فهى تليه ، وتأتى بعده، وهذا اخبار بقرب وقوعها[٥٦]

ب. – وفى حديث جبريل أنه سأل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الامة ربتها[٥٧] وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطالون فى البنيان[٥٨]

ج – وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله أن رسول الله ﷺ قال :(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان[٥٩] يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث[٦٠] دجالون كذابون قريب من ثلاثين[٦١]

كل يزعم أنه رسول الله وحتى يقبض العلم[٦٢] وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان[٦٣] وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذى يعرضه عليه : لا أرب لى به ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها[٦٤] فاذا طلعت ، ورأها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا

(٥٥) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٢٩٣

(٥٦) العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٤٥ فتح البارى ج ١١ ص ٢٩٣

(٥٧) قال ابن حجر فى معنى هذا (ان يكثر العقوق فى الاولاد ، فيعامل الولد امه معاملة السيد أمته ، من الاهانة بالسب والضرب والاستخدام ، فأطلق عليه ربها مجازا لذلك ، أو المراد بالرب المربى ، فيكون حقيقته ، وهذا أوجه الاوجه عندى ، لعمومه ، ولا المقام يدل على ان المراد فى حالة تكون مع كونها تدل على فساد الاحوال مستغربة ، ومحصلة ان الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الامور بحيث يصير المربى مربيا والسافل عاليا وهو مناسب لقوله فى العلامة الاخرى : أن تصير الحفاة ملوك الارض) انظر فتح البارى ج ١ ص

(٥٨) متفق عليه – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٠ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٥٨ وعبارة البخارى (ان تلد الامة ربها) ومعنى تطاول رعاء الشاء فى البنيان قال فيه القرطبى : (المقصود : الاخبار عن تبدل الحال بأن يستولى اهل البادية على الامر ويتملكوا البلاد بالقهر فتكثر أموالهم وتنصرف هممهم الى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك فى هذه الازمان) نقل هذا عن القرطبى ابن حجر فى فتح البارى ج ١ ص ١٠١

(٥٩) قال ابن حجر : المقصود فئة على ومن معه ، وفئة معاوية ومن معه – فتح البارى ج ١٢ ص ٧٢

(٦٠) اى يظهر

(٦١) وأمثال هؤلاء الاسود العنسى صاحب صنعاء ، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة ، وممن ادعى النبوة ، طليحة بن خويلد ، وسجاح ، وقد رجع هذان الاخيران عن دعواهما ، ومن هؤلاء المتأخرين مؤسسى القاديانية والبهائية – انظر فتح البارى ج ١٢ ص ٧٣ والعقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٤٦

(٦٢) اى يقبض علماء الدين والدعاة الى الله عز وجل

(٦٣) المراد نزع البركة من كل شىء حتى من الزمان ، فتكون السنة فى بركتها والانتفاع بها كالشهر ، الشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة – فتح البارى ج ١٣ ص ١٢ وتيسير الوصول ج ٤ ص ٩١

(٦٤) هذه من العلامات الكبرى وبقية العلامات المذكورة فى الحديث صغرى

ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته [٦٥] فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط [٦٦] حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فيه ، فلا يطعمها) [٦٧]

د - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:(ان من أشراط الساعة ان يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، ويشرب الخمر ، ويكثر النساء ، ويقل الرجال حتى ليكون لخمسين امرأة قيم واحد)

هـ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ فقال :(اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة) قال : وكيف اضاعتها ؟ قال : (اذا اسند الامر لغير اهله فانتظر الساعة) [٦٨].

و - وعن ابى هريرة ايضا ان النبى ﷺ قال(لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر : يامسلم ، ياعبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود) [٦٩]

وهناك احاديث صحيحة اخرى ذكرت لنا علامات اخرى تظهر قبل قيام الساعة ويمكن الرجوع اليها فى كتب الصحاح [٧٠]

وأما العلامات الكبرى فقد ورد فى بعض الاخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ ذكر عشر منها، وذلك كحديث حذيفة بن أسيد الغفارى ، حيث قال : (طلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالو : نذكر الساعة ، قال : انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ وياجوج ومأجوج وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم [٧١] وفيما يلى نبين لك أهم وأشهر هذه الايات حسب ماذكره العلماء وخاصة شراح الحديث الشريف :

١ - طلوع الشمس من المغرب :

وهذه الاية بداية التغيير الذى يحدثه الله على نظام الكون فى الحياة الدنيا ، ايذانا بقرب وقوع الساعة ، الذى يكون معه تغيير شامل لنظام الكون كما ذكره الله سبحانه وتعالى فى كثير من سور القرآن الكريم ، فأول هذا التغيير كما ورد فى كثير من الاحاديث طلوع الشمس من المغرب على خلاف ما

(٦٥) اللقحة : هى الناقة ذات اللبن

(٦٦) اى يصلحه بالطين

(٦٧) اخرجه البخارى - انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١٣ ص ٧٠ - ٧٦

(٦٨) انظر : البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٢٧٩
٧٣

(٦٩) اخرجه الشيخان واللفظ لمسلم- انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٤٤

(٧٠) تجد ذلك فى الصحيحين فى كتاب الفتن واشراط الساعة وكتاب الرقاق وفى مواضع اخرى متفرقة

(٧١) انظر :صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٢٧

نعهده من طلوعها من المشرق، والذى أطلعها من المشرق قادر على تغيير مسارها فهو خالقها ومدبر أمرها

وقد ورد فى بعض الاحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ ان هذه الاية تكون أول[(٧٢)] العلامات الكبرى ظهورا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان النبى ﷺ قال :(ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا)[(٧٣)]

وقد تقدم فى حديث أبى هريرة السابق ان هذه الاية اذا ظهرت وراها الناس آمنوا اجمعون وذلك حين لاينفع نفسا ايمانها اذا لم تكن قد آمنت من قبل ، وهو ما اشار الله تعالى اليه بقوله(يوم يأتى بعض ايات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل ، او كسبت فى ايمانها خيرا)[(٧٤)] وقد قال كثير من المفسرين ما حاصله : معنى الآية ان الكافر لا ينفعه ايمانه بعد طلوع الشمس من المغرب وكذلك العاصى لا تنفعه توبته ، ومن لم يعمل صالحا من قبل ولو كان مؤمنا لا ينفعه العمل بعد طلوعها من المغرب[(٧٥)]

ب – خروج الدابـة :

وهذه الاية أشار اليها الله تعالى فى القرآن حيث قال عز وجل : (**واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لايوقنون**)[(٧٦)]

وقد ورد ذكر خروج الدابة فى احاديث كثيرة بعضها صحيح وقد تقدم بعضها وليس فيما صح من تلك الاخبار وصف لهذه الدابة التى يخرجها الله عز وجل قبيل قيام الساعة وما ذكر من أوصافها فى بعض الكتب ورد فى روايات لم تبلغ حد الصحة والمؤمن لاتعنيه معرفة هذه الاوصاف وحسبه ان يقف عند النص القرآنى والحديث الصحيح الذى يفيد ان خروج الدابة من علامات الساعة وانه اذا ما انتهى الاجل الذى تنفع فيه التوبة وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك وانما يقضى عليهم بما هو عليه عندئذ يخرج الله لهم الدابة تكلمهم وتعرف على المؤمن وعلى الكافر واذا كان الناس لايعهدون تكلم الدواب فان الخالق القادر يمكنها من ذلك فيفهم عليها الناس ويعلمون انها الخارقة المنبئة بقيام الساعة أو اقترابها وقد كانوا من قبل لايؤمنون بآيات الله ولايصدقون بيوم القيامة[(٧٧)]

(٧٢) قال ابن حجر فيما يتعلق بترتيب ظهور علامات الساعة الكبرى مانصه(فالذى يترجح من مجموع الاخبار ان خروج الدجال أول الايات العظام المؤذنة بتغيير الاحوال العامة فى معظم الارض ، وينتهى ذلك بموت عيسى بن مريم ، وان طلوع الشمس من المغرب هو أول الايات العظام المؤذنة بتغيير احوال العالم العلوى وينتهى ذلك بقيام الساعة ولعل خروج الدابة يقع فى ذلك اليوم الذى تطلع فيه الشمس من المغرب .. والحكمة فى ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة . فتخرج الدابة تميز مؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من اغلاق باب التوبة ، وأول الايات المؤذنة بقيام الساعة النار التى تحشر الناس من المشرق الى المغرب) فتح البارى ج١١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧ فيتحصل من كلام ابن حجر ان الايات الكبرى ثلاثة انواع : المؤذنة بتغيير الاحوال العامة فى الارض والمؤذنة بتغيير احوال العالم العلوى ، والمؤذنة بقيام الساعة ، وان المقصود بأولية طلوع الشمس من المغرب الوارد فى حديث عبد الله بن عمر انها أول اية من النوع الثانى ، وهو النوع الذى اذا ظهر اغلق باب التوبة واغلق باب الايمان

(٧٣) اخرجه مسلم وابو دود – انظر فتح البارى ج ١١ ص ٢٩٧ وسنن ابى داود فى باب امارات الساعة ؟ وتيسير الوصول فى باب (اشراط متفرقة) وصحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٧٧

(٧٤) الانعام – الاية ١٥٨

(٧٥) فتح البارى ج ١١ ص ٢٩٧

(٧٦) النمل – الاية ٨٢

(٧٧) فى ظلال القران – المجلد السادس ص ٣٠٨

ج - ظهور الدجال :

والدجال هو الكذاب شديد الدجل، والدجل فى اللغة هو التغطية وسمي الكذاب دجالا لانه يغطي الحق بباطله ومن امارات الساعة الكبرى ظهور شخص سماه الرسول ﷺ بالدجال لكثرة تدجيله وكذبه يدعي الالوهية ويحاول ان يفتن الناس عن دينهم بما يحدثهم من خوارق العادات وعجائب الامور باذن الله سبحانه وتعالى فيفتتن به بعض الناس ويثبت الله الذين آمنوا ، فلا ينخدعون بدجله وضلاله، ثم يأذن الله بالقضاء على فتنته ، فينزل عيسى عليه السلام ، فيقتله، جاء فى شرح النووى على صحيح مسلم :(الاحاديث التى ذكرها مسلم وغيره فى قصة الدجال حجة لمذهب اهل الحق فى صحة وجوده وانه شخص بعينه ، ابتلى الله به عباده واقدره على اشياء من مقدورات الله تعالى، من احياء الميت الذى يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنياوالخصب معه ، وجنته وناره ، ونهريه، واتباع كنوز الارض له، وأمره السماء أن تمطر ، فتمطر والارض ان تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ويبطل أمره ويقتله عيسى ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار ، خلافا لمن انكره وابطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافا لمن ادعى انه صحيح الوجود وان الذى يدعيه مخارف وخيالات لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق بمعجزات الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وهذا غلط من جميعهم ، لأنه لم يدع النبوة، فيكون مامعه كالتصديق له ، وانما يدعى الالهية ، وهو فى نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن ازاله العور الذى فى عينيه وعن ازالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ولهذه الدلائل وغيرها لايغتر به الا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة فى سد الرمق، أو تقية وخوفا من أذاه، لان فتنته عظيمه جدا تدهش العقول وتحير الالباب، مع سرعة مروره فى الامر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدق من صدقه فى هذه الحالة. ولهذا حذرت الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين من فتنته ، ونبهوا على نقصه ودلائل ابطاله وأما أهل التوفيق، فلا يغترون به ، ولايخدعون لما معه ، لما ذكرنا من الدلائل المكذبة له، مع ما سبق لهم من العلم بحاله)[(٧٨)]

هذا وقد ورد فى ذكر الدجال جملة أحاديث صحيح ، نذكر منها :

- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : (قال رسول الله ﷺ فى الناس، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : انى لانذركموه وما من نبي الا وقد أنذر قومه ولكنى سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه : انه أعور وان الله ليس بأعور)[(٧٩)]

روى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال : (لأنا أعلم بما مع الدجال منه : معه نهران يجريان ، أحدهما رأى العين ماء ابيض والآخر رأى العين نار تأجج فأما أدركن احد فليأت

(٧٨) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٨ ص ٥٨ ، ٥٩

(٧٩) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١٣ ص ٨٠ وصحيح مسلم بشرح النووى ، ج١٨ ص ٥٩

النهر الذى يراه نارا ، وليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه فانه ماء بارد ، وان الدجال ممسوح العين ، عليها ظفره [٨٠] غليظة مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب) [٨١]

وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع [٨٢] حتى ظنناه فى طائفة النخل [٨٣] فلما رحنا اليه ، عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا ، يارسول الله ، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ، ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفنى عليكم ، ان يخرج وأنا فيكم ، فأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فأمرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم : انه شاب قطط [٨٤] عينه طافئة كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، انه خارج خلة [٨٥] بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، ياعباد الله ، فأثبتوا. قلنا : يارسول الله : وما لبثه فى الارض ؟ قال أربعون يوما : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم : قلنا : يارسول الله ، فذلك اليوم الذى كسنة ، اتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ، قلنا : يارسول الله : وما اسراعه فى الارض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم ، فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء ، فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليه سارحتهم [٨٦] ، أطول ماكانت ذرى [٨٧] وأسبغه ضروعا [٨٨] وأمده خواصر [٨٩] ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ، ليس بأيديهم شئ من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل [٩٠] ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين [٩١] رميه الغرض [٩٢] ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينا هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين

(٨٠) بفتح الظاء والفاء ، وهى جلدة تغشى البصر ، او لحمة تنبت عند الماق

(٨١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٩١

(٨٢) المقصود ، حقر من شأنه بما يتصف به من العور وغيره وبما سيؤول أمره اليه من الاضمحلال ورفع أى عظم من فتنته والمحنة به ، حتى حذر كل نبى من فتنته – انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٨ ص ٦٣

(٨٣) اى على مقربة من نخل المدينة

(٨٤) شديد جعودة الشعر

(٨٥) سيظهر فى مكان بين الشام والعراق

(٨٦) سارحة هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار الى المرعى

(٨٧) الذرى ، بضم الدال هى الاعالى والاسنمة

(٨٨) ضروعها كثيرة اللبن

(٨٩) أمده خواصر: اى لكثرة امتلائها من الشبع

(٩٠) اى كجماعة النحل ، واليعاسيب هى ذكور النحل

(٩١) اى قطعتين

(٩٢) اى يجعل بين الجزلتين مقدار رمية الغرض

مهرودتين [٩٣] واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل [٩٤] لكافر يجد ريح نفسه الا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد ، فيقتله .....) [٩٥]

هذه الاحاديث وغيرها حجة لمذهب أهل السنة فى وجوب الاعتقاد بظهور الدجال حسب ما اخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما وصفه به من الصفات ، وما يؤول أمره اليه ، وأنه من العلامات الكبرى لقيام الساعة

فاذا قيل : كيف يجرى الله الآيات الباهرة على يده ، والمعجزات لاتكون الا للانبياء فقد قال الخطابى فى الجواب عن هذا التساؤل :(الجواب انه على سبيل الفتنة للعباد، اذ كان عندهم مايدل على انه مبطل غير محق في دعواه ، وهو انه أعور ،مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم ، فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر، اذ لو كان الها لازال ذلك عن وجهه ، وآيات الانبياء سالمة من المعارضة ، فلا يشتبهان) [٩٦] ويقول ابن حجر : (وفى الدجال مع ذلك دلالة بينه لمن عقل ، على كذبه ، لانه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه فاذا دعا الناس الى انه ربهم ، فأسوأ حال من يراه من ذوى العقول ان يعلم انه لم يكن يسوى خلق غيره ويعدله ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل مايجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والارض صور نفسك وعدل لها ، وأزل عنها العاهة فان زعمت أن الرب لايحدث في نفسه شيئا فأزل ماهو مكتب بين عينيك) [٩٧]

د - نزول عيسى عليه السلام :

فقد دلت السنة ، واجمعت الامة على ان عيسى عليه السلام ينزل فى أخر الزمان قرب الساعة، اثناء وجود الدجال ، فيقتله ، ويحكم بشريعة الاسلام ، ويحيى من شأنها ماتركه الناس ، ثم يمكث فى الارض ماشاء الله أن يمكث، ثم يموت ، ويصلى عليه المسلمون ، ويدفن ، وقد ورد بذلك احاديث صحيحة كثيرة ، تقدم بعضها ،فيجب على كل مسلم ان يصدق به ، وان يعتقد بما اخبر به كتاب ربنا من أن عيسى عليه السلام لم يقتله اليهود وانما رفعه الله اليه ، وانه لن يموت حتى ينزل قبل قيام الساعة ، فقد قال سبحانه وتعالى :(**وقولهم ، انا قتلنا المسيح عيسى ان مريم رسول الله . وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وأن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما ، وأن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا**) [٩٨]

(٩٣) اى ثوبين مصبوغين
(٩٤) اى لا يمكن ولا يقع لكافر
(٩٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١٢ وما بعدها
(٩٦) نقله ابن حجر فى فتح البارى ج ١٣ ص ٨٩
(٩٧) المرجع السابق
(٩٨) النساء - الآيات ١٥٧ - ١٥٩

فانظر الى قوله تعالى(**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**) وفى تفسير قوله تعالى :(**وان من اهل الكتاب الا ليؤمن به قبل موته**) قال ابن كثير : (قال ابن جرير : وأولى هذه الاقوال بالصحة القول الاول ، وهو انه لايبقى احد من اهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه الا امن به قبل موت عيس عليه السلام ولاشك ان هذا الذى قاله ابن جرير هو الصيح لانه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الامر كذلك ، وانما شبه لهم ، فقتلوا الشبه ، وهم لايتبينون ذلك ، ثم انه رفعه اليه ، وانه باق حى ، وانه سينزل قبل يوم القيام كما دلت عليه الاحاديث المتواترة .. فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، فأخبرت هذه الآية الكريمة انه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منه ...)[٩٩]

ومن الاحاديث الواردة فى ذكر نزول عيسى عليه السلام ما رواه الشيخان عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(والذى نفسى بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب[١٠٠] ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية[١٠١] ، ويفيض المال[١٠٢] حتى لايقبله احد، حتى تكون السجدة الواحدة خير[١٠٣] من الدنيا وما فيها[١٠٤] والاحاديث فى هذا كثيرة صحيحة[١٠٥] قال القاضى عياض :(نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند اهل السنة للاحاديث الصحيحة فى ذلك ، وليس فى العقل ولا فى الشرع مايبطله ، فوجب اثباته ، وانكر ذلك بعض المعتزلة ومن وافقهم ، وزعموا ان الاحاديث مردودة بقوله تعالى (**وخاتم النبيين**) وبقوله ﷺ (لانبى بعدى) وباجماع المسلمين ، انه لانبى بعد نبينا ﷺ وأن شريعته مؤبدة الى يوم القيامة لاتنسخ ، وهذا استدلال فاسد ، لانه ليس المراد بنزول عيس عليه السلام انه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا فى هذه الاحاديث ولا فى غيرها شئ من هذا ، بل وضحت هذه الاحاديث انه ينزل حكما مقسطا بحكم بشرعنا ، يحكم من أمور شرعنا ماهجره الناس[١٠٦]

(٩٩) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧٧

(١٠٠) المراد بذلك انه عليه السلام يكسره حقيقة ، ويبطل مايزعمه النصارى من تعظيمه وقيل : ان المراد من كسره اظهار كذب النصارى؛ حيث ادعوا ان اليهود صلبوا عيسى عليه السلام على خشب — انظر الدين الخالص ج ١ ص ٩٢

(١٠١) المقصود بوضع الجزية : ان عيسى عليه السلام يسقطها عن أهل الكتاب فلا يقبل منهم الا الاسلام وليس معنى ذلك أن عيسى عليه السلام ينسخ حكما من شريعة الاسلام ولكن هذا الحديث يدل على أن قبول الجزية فى شريعة الاسلام ملغيا بنزول سيدنا عيسى عليه السلام — المرجع السابق ج١ ص ٩٣

(١٠٢) اى يكثر المال بسبب ما ينشره عيسى عليه السلام من العدل بين الناس

٨٠

(١٠٣) المقصود أن رغبات الناس تقل فى اقتناء المال لقصر آمالهم وعلمهم بقرب وقوع الساعة وكثرة رغبتهم فى طاعة الله عز وجل

(١٠٤) متفق عليه

(١٠٥) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٧ ص ٣٠٢ ، مطبعة البابى الحلبى وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ١٨٩ وصحيح الترمذى ج ٩ ص ٧٦ وسنن ابن ماجة — المجلد الثانى ، كتاب الفتن مطبعة عيسى البابى الحلبى ، والفتح الربانى ج٢ ص —١٤٣ الطبعة الاولى

(١٠٦) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٨ ص ٧٥ ، ٧٦

٩- ظهور يأجوج ومأجوج :

وقد ورد ذكر هذه العلامة فى القرآن الكريم ، قال تعالى : (ثم اتبع سببا ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا ، قالوا : ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض ، فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما ، أتونى زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى اذا جعله نارا ، قال : آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال : هذا رحمة من ربى ، فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا)(١٠٧) وقال عز وجل : (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين)(١٠٨)

ومما ورد فى ذكرهم من الاحاديث الصحيحة ما أخرجه الشيخان عن زينب بنت جحش رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول : (لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه : الابهام والتى تليها) قالت زينب بنت جحش يارسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : (نعم اذا كثر الخبث)(١٠٩)

ومنها ما أخرجه الامام مسلم وغيره من حديث النواس بن سمعان الذى تقدم ذكره وفيه خبر الدجال ونزول عيسى وذكر يأجوج ومأجوج ، حيث قال رسول الله ﷺ (ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون مافيها ، ويمر أخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء)(١١٠)

(١٠٧) الكهف - ٩٢ - ٩٨ ويقول سيد قطب رحمه الله فى تفسير هذه الايات (ونحن لانستطيع ان نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ اليه ذو القرنين « بين السدين » ولا ما هما هذا السدان ، كل ما يؤخذ من النص انه وصل الى منطقة بين حاجزين طبيعين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر، فوجد هناك قوما متخلفين (لايكادون يفقهون قولا) وعندما وجدوه قويا وتوسموا فيه القدرة والصلاح ، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم . وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم ، وتبعا للمنهج الصالح الذى اعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الارض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال ، وتطوع باقامة السد ، ورأى أن أيسر طريقة لاقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعين ، فطلب الى اولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية (فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) فجمعوا له قطع الحديد وكوموها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما (حتى اذا ساوى بين الصدفين) واصبح الركام بمساواة القمتين (قال: انفخوا) على النار لتسخين الحديد (حتى اذا جعلوه نارا) كله لشدة توهجه واحمراره (قال: أتونى افرغ عليه قطرا) أى نحاسا مذابا يتخلل الحديد ويختلط به فيزيد صلابة ، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا فى تقوية الحديد ، فوجد ان اضافة نسبة من النحاس اليه تضاعف مقاومته وصلابته وكان هذا الذى هدى الله اليه ذ القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون لا يعلم عددها الا الله ، بذلك التحم الحاجزان ، وعلق الطريق على يأجوج ومأجوج (فما اسطاعوا ان يظهروه) يتسوروه (وما استطاعوا له نقبا) فينفذوا منه ، وتعذر عليهم ان يهاجموا اولئك القوم الضعاف المتخلفين ، فأمنوا واطمأنوا ونظر ذو القرنين الى العمل الفخم الذى قام به فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد اليه العمل الصالح الذى وفقه اليه ، وتبرأ من قوته الى قوة الله وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة فتعود الارض سطحا اجرد مستويا ثم قال رحمه الله(وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ أين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟ كل هذه اسئلة تصعب الاجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم الا ماورد فى القرآن وفى بعض الاثر الصحيح . والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين (فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) انظر فى ظلال القرآن - المجلد الخامس ص ٤١١ - ٤١٣

(١٠٨) الانبياء - ٩٦ ، ٩٧

(١٠٩) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١٣ ص ٩١ وما بعدها

(١١٠) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٦٨

وهناك أحاديث صحيحة اخرى ذكرت يأجوج ومأجوج ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقينى بظهور هذه الامة المفسدة ، فى أواخر عمر هذه الدنيا فكان لا بد للمؤمن من تصديق ماورد به القرآن والخبر الصحيح من أمرهم ، وأما تحديد الزمن الذى تظهر فيه هذه الامة والتفصيلات المتعلقة بأشكالهم وأوصافهم ومكان وجودهم قبل ظهورهم فكل هذا من امور الغيب التى لايعلمها الا الله تعالى

٤ – بداية اليوم الآخر :

ويجب ان نؤمن بعد ذلك بما أخبر به الله عز وجل فى كتابه الكريم لاسيما فى سورتى التكوير والانفطار ، بكل مايحدث فى آخر يوم من ايام الدنيا ، وبدء اليوم الاخر فان مجموع الآيات الكريمة تدل على ان اليوم الآخر **يبدأ** باحداث تغيير عام فى هذا الكون فتنشق السماء وتتناثر النجوم وتتصادم الكواكب وتتفتت الارض وتغدو صعيدا جرزا وتصبح الجبال كثيبا مهيلا ، ويخرب كل شئ ، ويدمر كل ما عرفه الناس فى هذا الوجود ، قال تعالى :(**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار**)[١١١] ويكون هذا على أثر النفخة الاولى ، ينفخها اسرافيل بأمر ربه ، فيصعق كل من فى السموات ومن فى الأرض الا ماشاء الله تعالى[١١٢] قال عز وجل : (**ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا ماشاء الله ، ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون**)[١١٣] وقال: (**فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية**)[١١٤] وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :(**يقبض** الله الارض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الارض)[١١٥]

٥ – البعـــث :

ونؤمن بعدها ان الله سبحانه يأمر بالنفخة الثانية[١١٦] فتعود الحياة على أثرها الى الاموات ، وهذا هو يوم البعث وهو اعادة الانسان روحا وجسدا كما كان فى الدنيا ، ثم يخرج الله الناس من الاجداث احياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ (**ياويلنا من بعثنا من مرقدنا**)[١١٧] ويقول المؤمنون (**هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون**)[١١٨] وقد ورد فى الاحاديث الصحيحة ان محمدا ﷺ هو أول من يخرج من قبره ، فقد قال ﷺ (يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام ، فاذا موسى آخذ بالعرش فما أدرى أكان فيمن صعق)[١١٩]

(١١١) ابراهيم – الايه ٤٨
(١١٢) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٣١٣
(١١٣) الزمر – الاية ٦٨
(١١٤) الحاقة – الايات ١٣ – ١٦
(١١٥) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣١٣
(١١٦) اشار الله سبحانه الى النفخة الاولى والثانية فى قوله عز وجل (يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة) فالراجفة هى النفخة الاول والرادفة هى **الثانية** هكذا ورد عن تفسير ابن عباس رضى الله عنهما – انظر : صحيح البخارى وفتح البارى ج ١ ص ٣١٠ ٣١١
(١١٧) يس – الاية ٥٢
(١١٨) يس – الاية ٥٢
(١١٩) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣١٢

٦ - الحشر

ونؤمن أنه يكون الحشر بعد بعث الخلائق واخراجهم من قبورهم ، قال تعالى (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين الى جهنم وردا)[(١٢٠)]

والحشر هو سوقهم جميعا الى الموقف ، وهو المكان الذى يقفون فيه انتظارا لفصل القضاء بينهم ، فبعد بعث الناس يأمر الله ملائكته ، فتسوقهم الى الموقف ، وحالهم كما خلقوا أول مرة : حفاة غير منتعلين ، عراة غير مكتسين ، غرلا غير مختتنين ، فقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قلت : يارسول الله ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال ﷺ : ياعائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم الى بعض)[(١٢١)] .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : (يأيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا ، ثم قال : كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا أنا كنا فاعلين .. الى آخر الاية ، ثم قال : الا وان أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ، الا وانه يجاء برجال من أمتى ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابى ، فيقال : انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح[(١٢٢)] وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، فيقال : ان هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)[(١٢٣)]

وفى الموقف يصيب الخلائق كرب شديد ، فقد روى المقداد بن الاسود عن رسول الله ﷺ انه قال :(تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل[(١٢٤)] فيكون الناس قدر اعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما ، وأشار ﷺ بيده الى فيه)[(١٢٥)] وفى اثناء ذلك أناس ظل الله عز وجل كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (سبعة يظلهم الله بظله يوم لاظل الا ظله العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعه عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته أمرأة ذات منصب وجمال فقال : انى اخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم يمينه ماتنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[(١٢٦)]

(١٢٠) مريم - الايتان ٨٥ ، ٨٦

(١٢١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣ صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٢٥

(١٢٢) اى عيسى عليه الصلاة والسلام

(١٢٣) انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٨ ص ٢٣٠ ج ١١ ص ٣٢٢

(١٢٤) قال سليم بن عامر - راوى الحديث عن المقداد - فو الله ما ادرى مايعن بالميل : أمسافة الارض أم الميل الذى يكتحل به العين ، صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ١٩٦

(١٢٥) المرجع السابق

(١٢٦) انظر :صحيح البخارى بحاشية السندى ج ١ ص ١٧٠ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٧ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ واللفظ له والسنن الكبرى ج ١٠ ص ٨٧ وسنن النسائى ج ٨ ص ٢٢٢، ٢٢٣

فاذا اشتد الامر بالناس . وعظم بهم الكرب فى هذا الموقف العظيم ، استشفعوا الى الله عز وجل بالرسل والانبياء أن ينقذهم مما هم فيه ، ويعجل لهم فصل القضاء وكل رسول يحيلهم على من بعده ، حتى يأتو نبينا محمدا ﷺ فيشفع فيهم ويقبل البارى شفاعته[١٢٧] فينصرف الناس الى فصل القضاء

٧ـ جـــزاء الاعمال :

ونؤمن بجزاء الاعمال فى اليوم الآخر ، فيجزى العباد ، ويجازون على كل ماكسبوه فى الحياة الدنيا من خير أو شر ، قال عز وجل : (**يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون ان الله هو الحق المبين**)[١٢٨] والدين هو الجزاء ، فيقال : كما تدين تدان ، أى كما تجازى تجازى[١٢٩] وقال سبحانه : (**من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون**)[١٣٠] وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل :(**ياعبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ، ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه**)[١٣١]

٨ – العرض والحساب :

ونؤمن ان الجزاء يكون بعد محاكمة عادلة ، يعرض فيها الناس على ربهم ، وتقام فيها الحجج عليهم ولهم ، ويطلعون على أعمالهم ، ويقرؤون صحفهم ، فيجب أن نؤمن بالعرض والحساب وقراءة الكتاب ، فجميعها حق ، ودل عليها الكتاب والسنة واجماع علماء المسلمين .

فاما العرض فدليله قوله تعالى (**فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على ارجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية**)[١٣٢] **وقوله تعالى (وعرضوا على ربك صفا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة)**[١٣٣]

فيجب على كل مسلم أن يؤمن بأن كل عبد يعرض على ربه ، فيتولى سبحانه حسابه بنفسه ، وبدون وساطة ، عن عدى بن حاتم ، رضى الله عنه ، ان النبى ﷺ قال : (ما منكم من احد الا سيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه ، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمرة)[١٣٤]

(١٢٧) وهذه هى الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد ﷺ من بين سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام ، وهى متفق عليها بين الامة ، لانها تثبت بالاحاديث الصحيحة ، وهى من المقام المحمود الذى وعد به الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) الاسراء – الاية ٧٩– انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ وأحاديث الشفاعة فى صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٥٤ – ٧٧ وشرح العقيدة الواسطية ص ١٢٨ والعقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٧٤

(١٢٨) النور – الاية ٢٥

(١٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٥

(١٣٠) القصص – الاية ٨٤

(١٣١) من حديث قدسى طويل رواه الامام مسلم – انظر رياض الصالحين ص ٦٢ ،

(١٣٢) الحاقة – الايات ١٥ – ١٨

(١٣٣) الكهف – الاية ٤٨

(١٣٤) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٤٠

ويدخل فى معنى العرض ابراز الاعمال واظهارها ، فيعرف صاحبها بذنوبه ، فان كان من اهل النجاة ، وهو الذى يؤتى كتابه بيمينه ، تجاوز الله عن ذنوبه ، ولم يناقشه الحساب ، وادخله الجنة ، ولم يعذبه بالنار ، وأما من كثرت معاصيه ، وأوتى كتابه وراء ظهره ، فذلك الذى يناقش الحساب ، ويسأل عن كل كبيرة وصغيرة ، فقد حدثت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : (ليس احد يحاسب يوم القيامة الا هلك ، فقلت : يارسول الله ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساب يسيرا ؟ فقال رسول الله ﷺ : انما ذلك العرض ، وليس احد يناقش الحساب يوم القيامة الا عذب)(١٣٥) والمراد بالمناقشة الاستقصاء فى المحاسبة ، والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة(١٣٦)

وأما اخذ العباد صحائف أعمالهم يوم القيامة ، وقراءتهم لها ، فحق يجب الايمان به ومن أنكره كفر ، قال تعالى (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)(١٣٧) ويجب علينا أن نؤمن بما جاء فى قوله تعالى عن هذا الامر ، حيث قال :(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى اهله مسرورا ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا ، انه كان فى اهله مسرورا ، انه ظن ان لن يحور ، بلى ان ربه كان به بصيرا)(١٣٨)

والمراد بهذه الصحف التى يقرؤها العباد ، الكتب التى كتبت فيها الملائكة ، ما فعلوه فى الحياة الدنيا(١٣٩) فقد عرفت أن من أركان الايمان التصديق بما أخبر به الله سبحانه عن ملائكته وأعمالهم ، والايمان بهم يكون بتصديق كل ما اخبر عنهم ربهم اجمالا وتفصيلا ، وأنه يجب علينا ان نؤمن بأن الله عز وجل وكل بنا من ملائكته من يحفظنا ، ويكتب اعمالنا واقوالنا ، وهم الحافظون الكرام الكاتبون ، الذين قال عنهم سبحانه وتعالى :

(وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون)(١٤٠) وقال ايضا (هذا كتابنا ينطق بالحق ، انا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون)(١٤١) فما يستنسخه هؤلاء الكرام يقرؤه العباد يوم القيامة

وأما الحساب فالمراد به توقيف الله تعالى العباد ، قبل الانصراف من المحشر ، على أعمالهم ، وأقوالهم واعتقاداتهم ، خيرا كانت أو شرا ، وذلك بعد اخذهم صحائفهم فيعرفون على أعمالهم ، وما لهم وما عليهم ، قال تعالى (ثم الى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون)(١٤٢)

ثم أن الناس فى الحساب متفاوتون

(١٣٥) صحيح البخارى ج ١١ ص ١٣٨
(١٣٦) فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٧
(١٣٧) الاسراء - الايتان ١٣ ، ١٤
(١٣٨) الانشقاق - الايات ٦ - ١٥
(١٣٩) شرح البنجورى على جوهرة التوحيد ص ٢١٢
(١٤٠) الانفطار - الايات ١٠ -١٢
(١٤١) الجاثية - الاية ٢٨
(١٤٢) الانعام - الاية ١٠٨

فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا ، يعرض عليه عمله ، فيطلعه الله على سيئاته بحيث لايطلع عليها احد ثم يعفو عنه ويأمر به الى الجنه

ومنه من يناقش الحساب بأن يسأل عن كل جزئيه ويطالب بالعذر والحجة فلا يقبل منه عذر ولا حجة فيهلك مع الهالكين ويأمر الله تعالى مناديا ينادى عليه بسيئات أعماله فيفتضح بين الخلائق فعلى المؤمن ان يحاسب نفسه قبل ان يحاسب ويبادر بالاعمال الصالحة قبل فوات الاوان ويؤمن بالحساب ويستعد له ، فقد قال تعالى (**وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين**)(١٤٣)

وقال رسول الله ﷺ (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟)(١٤٤)

وقد دلت الاحاديث الصحيحة أن قوما من أمة محمد ﷺ يتفضل عليهم ربهم ، ويستثنيهم من هذا الحساب ، ويدخلهم الجنة من غير حساب ولا عذاب ، فقد روى الامام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال ﷺ يدخل من امتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب)(١٤٥)

وأما كيفية الحساب فنؤمن بما ورد فى القرآن عنها ، وفى حديث رسول الله ﷺ ولا نزيد ولا ننقص ولا نسأل عن أكثر مما ورد : فنؤمن ان الله سبحانه يذكر كل عبد بما قدمه فى الحياة الدنيا من خير أو شر ويشهد على العباد جميع من يستشهدهم الله عليهم(١٤٦) فتشهد الارض بما حدث على ظهرها ، كما قال عز وجل (**اذا زلزلت الارض زلزالها ، وأخرجت الارض اثقالها ، وقال الانسان ، مالها ؟ يومئذ تحدث اخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**)(١٤٧) فقد ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ (يومئذ تحدث اخبارها) فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالو : الله ورسوله اعلم ، قال : فان أخبارها أن تشهد على كل عبد أو امة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا قال : فهذه اخبارها)(١٤٨)

ونؤمن أيضا بأنه يكون فى هذا الحساب شهادة الاعضاء : من السنة وأيد وأرجل وجلود وغيرها على كل مافعله العبد ، وبما أخبر الله تعالى من تحاور أعداء الله مع هذه الشهود ، قال عز وجل ، (**ويوم نحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون ، حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون**)(١٤٩)

ونؤمن ايضا انما اخبرنا به رسول الله ﷺ من رحمة الله عز وجل بعباده المؤمنين عند الحساب ، دون

(١٤٣) اخرجه الترمذى وقال عنه حديث حسن صحيح انظر صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ٩ ص ٢٥٣

(١٤٤) الانبياء — الاية ٤٧

(١٤٥) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٨٨

(١٤٦) قال محمود خطاب السبكى :(وأعلم انه سيشهد على العاصى أحد عشر شاهدا فى اليوم المشهود : اللسان والايدى والارجل والسمع والبصر والجلد والارض والليل والنهار ، والحفظة الكرام والمال) ثم ساق على ذلك عدد من الايات والاحاديث – انظر الدين الخالص ج ١ ص ١٠٥ وما بعدها

(١٤٧) سورة الزلزلة

(١٤٨) رواه الترمذى وقال حسن غريب – انظر صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ٩ ص ٢٦٠

(١٤٩) فصلت – الايات ١٩ – ٢٢

الكافرين ، فيخلو سبحانه بعبده المؤمن ، ويقرره بذنوبه ويسر عليه ، ولا يناقشه الحساب ، فقد ورد انه قيل لابن عمر رضى الله عنهما كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى (مناجاة الله لعبده المؤمن فى الاخرة) قال : سمعته يقول (يدنوا احدكم من ربه ، حتى يضع كنف عليه ، فيقول أعملت كذا وكذا فيقول نعم ، ويقول : أعملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول : انى سترت عليك فى الدنيا وانى اغفرها لك اليوم ثم يعطى صحيفة حسناته وأما الكفار فينادى على رؤوس الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الالعنة الله على الظالمين)[١٥٠]

٩ – الحـــوض :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به المصطفى ﷺ عن الحوض الذى تفضل الله به عليه وعلى امته ، فان الاحاديث الواردة فى ذلك تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة اكثر من ثلاثين صحابيا[١٥١]

ويكون أول من يرده نبينا محمد ﷺ ثم ترده بعده امته ويطرد عنه الكفار وطائفة من العصاة وأهل الكبائر[١٥٢] وذلك بعد الانتهاء من الموقف بما فيه من أهوال وعرض وحساب وقراءة الصحف ، وغيرها قال رسول الله ﷺ (انا فرطكم[١٥٣] على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ ابداً وليردن على أقوام اعرفهم ويعرفوننى، ثم يحال بينى وبينهم ، فيقول ﷺ انهم امتى : فيقال : انك لاتدرى ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن بدل بعدى[١٥٤] وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج يوما فصلى على اهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف الى المنبر فقال : (انى فرط لكم ، وانا شهيد عليكم ، والله لأنظر الى حوضى الان ، وانى قد اعطيت مفاتيح خزائن الارض أو مفاتيح الارض ، وانى والله ماأخاف عليكم ان تشركوا بعدى ، ولكن أخاف أن تتنافسوا فيها)[١٥٥] واخرج البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبى بكر ان رسول الله ﷺ قال (انى على الحوض حتى انظر من يرد منكم ، وسيؤخذ اناس دونى فأقول : يارب منى ومن امتى ، فيقال : أما شعرت ماعملوا بعدك ، والله مابرحوا بعدك يرجعون على أعقابهم)[١٥٦]

هذا ونؤمن بما ورد فى صفته على لسان رسول الله ﷺ ونحمله على ظاهره لانزيد عليه ولا ننقص منه قال شارح العقيدة الطحاوية :(والذى يتلخص من الاحاديث الواردة فى صفة الحوض : انه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هو اشد بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج واحلى من العسل ، أطيب ريحا من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية

(١٥٠) متفق عليه – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١٢ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨

(١٥١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٠ وشرح النووى على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٥٣ وشرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص ١١٥ وشرح السجورى على الجوهرة ص ٢٢٣ والدين الخالص ج ١ ص ١١١

(١٥٢) الدين الخالص ج ١ ص ١١١

(١٥٣) الفرط هو من يتقدم الواردة ليرتاد لهم المارة ويلبسه الاوعية والملابس والمعنى انا متقدمكم وسابقكم الى الحوض

(١٥٤) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ٥٣ ، ٥٤

(١٥٥) متفق عليه – انظر صحيح البخارى – كتاب الجنائز – باب الصلاة على الشهيد ، وصحيح مسلم بشرح النووى – ١٥ ص ٥٧

(١٥٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ٥٥

منّ زواياه مسيرة شهر ، وفى بعض الاحاديث : انه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع .. فسبحان الخالق الذى لايعجزه شىء)[١٥٧]

ومن الاحاديث الواردة فى صفة الحوض ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما انه قال : قال النبى ﷺ (حوضى مسيرة شهر ماؤه ابيض من اللبن ، وريحه اطيب من المسك ، وكيزانه[١٥٨] كنجوم السماء ، من شرب منها فلا يظمأ أبدا)[١٥٩]

والاحاديث الصحيحة الواردة فى ذكر حوض نبينا ﷺ كثيرة ، بلغت حد التواتر ، وتصديقها من الايمان ، قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : (احاديث الحوض صحيحة ، والايمان به فرض ، والتصديق به من الايمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لايتأول ، ولا يختلف فيه .. وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة فذكره مسلم من رواية ابن عمرو بن العاص وعائشة وام سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود وحذيفة وحارثة بن وهب ، والمستورد وأبى ذر وثوبان وأنس وجابر بن سمرة ، ورواه غير مسلم من رواية أبى بكر الصديق، وزيد بن أرقم وأبى أمامة وعبد الله بن زيد وأبى برزة وسويد بن حبلة وعبد الله بن الصنابجى والبراء ابن عازب ، وأسماء بنت أبى بكر وخولة بنت قيس وغيرهم ... وفى بعض هذا ما يقتضى كون الحديث متواترا)[١٦٠]

هذا وقد ورد فى بعض الاحاديث الصحيحة ان لكل نبى حوضا ، وان حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا[١٦١]

١٠ – الميـــزان :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به الله عز وجل ، ورسوله ، من أن أعمال العباد ، خيرها وشرها ، توزن يوم القيامة بميزان ، أظهارالعدلالله فقد قال سبحانه وتعالى (**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وأن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين**)[١٦٢] وقال تعالى(**والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**)[١٦٣] وقال ايضا (**فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية**)[١٦٤]

وتدل الاخبار على انه ميزان حقيقى ، له كفتان ، وأن الله سبحانه يحول أعمال العباد الى أجسام لها ثقل ، فتوضع الحسنات فى كفة والسيئات فى كفة[١٦٥] وفى ذلك قال ابن القيم فى قصيدته المشهورة:

(١٥٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥١

(١٥٨) اى آنيته أو أباريقه

(١٥٩) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٩٦ – ٣٩٨ وهو فى صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ٥٥

(١٦٠) نقله عن القاضى عياض النووى فى شرحه على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٥٣

(١٦١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥١، شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢٢٣ والدين الخالص ج ١ ص ١١١

(١٦٢) الانبياء – الاية ٤٧

(١٦٣) الاعراف – الايتان ٨ ، ٩

(١٦٤) القارعة – الايتان ٧ ، ٨

(١٦٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٢، شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص ١٢٣ ، الدين الخالص ج ١ ص ١٠٧

أفما تصدق أن أعمال العباد تحط يوم العرض فى الميزان
وكذلك تثقل تارة وتخف أخرى ذاك فى القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه والكفتان اليه ناظرتان
ماذاك أمرا معنويا بل هو المحسوس حقا عند ذى الايمان(١٦٦)

هذا ويكون وزن الاعمال بعد اتمام الحساب لان الوزن للجزاء ، فيكون بعد المحاسبة التى هى لتقرير الاعمال الحادثة فيكون الوزن لاظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها(١٦٧) ولكن لا يكون وزن فى حق الانبياء والملائكة ومن استثناهم الله من الحساب)(١٦٨)

١١ - الصــراط :

ونؤمن أنه يكون بعد الحساب والميزان انصراف الناس من الموقف ، ليمروا فوق الجسر المنصوب على جهنم ، وهو الصراط

والمرور على الصراط عام لجميع الناس : الانبياء والصديقين ، والمؤمنين ، والكفار ، ومن يحاسب ومن لايحاسب ، ومن استقام على صراط الله الذى هو دين الحق فى الدنيا ، استقام على هذا الصراط(١٦٩) فى الآخرة ، وقد ورد فى بعض الاحاديث الصحيحة أن الناس يمرون عليه ، وتكون سهولة ذلك عليهم بقدر أعمالهم فى الحياة الدنيا : فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر يرمل رملا ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتى يمر المقل فى العمل الصالح تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه ألما ، فيخلصون فاذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذى نجانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله مالم يعط أحد(١٧٠)

هذا وقد ورد فى ذكر الصراط جملة أحاديث صحيحة ، نذكر لك منها هذا الحديث الذى اخرجه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه :

قد أخبر أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالو : لا يارسول الله ، قال : هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله قال : فانكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت (١٧١) الطواغيت ، وتبقى هذه الامة فيها منافقوها(١٧٢) فيأتيهم الله

(١٦٦) انظر قصيدة ابن القيم مع شرحها ج ٢ ص ٥٩٣
(١٦٧) نقل ذلك عن القرطبى شارح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٢
(١٦٨) شرح البنجورى على الجوهرة ص ٢١٥
(١٦٩) اصل الصراط - الطريق ، ويلفظ بالسين ايضا واشتقاقه من سرط اى ابتلع. وقيل سمى بذلك لانه يسترط السابلة (المارة) اى يبتلعهم - انظر المصباح المنير
(١٧٠) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٠ والعقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص ١٢٦
(١٧١) قال أهل اللغة : الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ١٨
(١٧٢) قال العلماء : انما بقوا فى زمرة المؤمنين لانهم كانوا فى الدنيا متسترين بهم فيتسترون بهم ايضا فى الاخرة ، ويسلكون مسلكهم ويدخلون فى جملتهم ويتبعونهم ويمشون فى نورهم حتى يضرب الله بينهم بسور ويذهب عنهم نور المؤمنين ، حتى يكون مقرهم الدرك الاسفل من النار - انظر شرح النووى على مسلم ج ٣ ص ١٩

تبارك وتعالى فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك[١٧٣] هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله تعالى فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجيز[١٧٤] ، ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب[١٧٥] مثل شوك السعدان[١٧٦] هل رأيتم السعدان ؟ قالوا نعم يارسول الله ، قال : فانها مثل شوك السعدان ، غير انه لايعلم ماقدر عظمها الا الله ، تخطف الناس بأعمالهم[١٧٧] فمنهم المؤمن بقى بعمله[١٧٨] ومنهم المجازى حتى ينجى[١٧٩]

هذا والمرور على الصراط هو الورود المذكور فى قوله تعالى (وان منكم الا واردها)[١٨٠] فانه لاينجو منه أحد كما تقدم فقد روى الامام مسلم أن رسول الله ﷺ قال (لايدخل النار ان شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها ، فقالت حفصة (وان منكم الا واردها) فقال النبى ﷺ قد قال الله عز وجل (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا)[١٨١] فأشار عليه الصلاة والسلام الى ان ورود النار لايستلزم دخولها[١٨٢] فالجميع يمرون من فوق جهنم فوق الصراط وينجى الله المؤمنين ، ويذر الظالمين فيها جثيا ، ثم اذا عبر المؤمنون الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص من بعضهم لبعض ، فأذا هذبوا اذن لهم فى دخول الجنة ، روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن الرسول ﷺ انه قال (يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى اذا هذبوا ونقوا اذن له فى دخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا)[١٨٣]

(١٧٣) قال القرطبى فى تأويل ذلك : هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب وذلك انه لما بقى المنافقين مختلطين بالمؤمنين زاعمين انهم منهم ظانين ان ذلك يجوز فى ذلك الوقت كما جاز فى الدنيا امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع : أنا ربكم ، فأجابه المؤمنون بانكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه وانه منزه عن صفات هذه الصورة فلهذا قالوا: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا نقل هذا عن القرطبى ابن حجر فى فتح البارى ج ١١ ص ٣٨٠ ، ٣٨١

(١٧٤) لفظ البخارى (وبه) اى فى الجسر المنصوب على جهنم

(١٧٥) جمع كلوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة ، وهو حديدة معطوفة الرأس

(١٧٦) نبت له شوكة عظيمة من كل الجوانب

(١٧٧) يجوز أن يكون المعنى تخطفهم بسبب اعمالهم ويجوز ان يكون معناها تخطفهم على قدر اعمالهم، شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ٢١

(١٧٨) لفظ البخارى: (فمنهم الموبق بعمله ومنهم المخردل) أى المقطع أو المصروع

(١٧٩) جزء من حديث أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم ، انظر صحيح البخارى ج١١ ص ٣٦٧ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ١٧

(١٨٠) مريم – الاية ١٧

(١٨١) مريم – الاية ٧٢ والحديث اخرجه الامام مسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٥٧

(١٨٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧١

(١٨٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٦

١٢ - الجنـــة والنـــار :

وبعد ذلك كله نؤمن بوجود الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان من مخلوقات الله عز وجل أعدهما للثواب والعقاب ، وانه سبحانه وتعالى خلقهما قبل الخلق ، وأنهما موجودتان الان ، وانهما باقيتان الى الابد لاتفنيان ولا تبيدان ، قال تعالى عن النار :(**يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون**)(١٨٤) **وقال** ايضا (**يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول : هل من مزيد**)(١٨٥) وقال عز وجل مخبرا عن بعض مافيها : (**أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، أنا جعلناها فتنة للظالمين ، انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم أن لهم عليها لشوبا من حميم**)(١٨٦) وقال رسول الله ﷺ فى وصف النار : (ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، قيل : يارسول الله : ان كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها)(١٨٧) وقال عليه الصلاة والسلام فى وصف أخف العذاب فى النار (ان اهون النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع فى أخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه)(١٨٨)

وأما الجنة فقد أكثر الله سبحانه من ذكر نعيمها فى كتابه الكريم ، من ذلك : قوله تعالى (**ان المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم**)(١٨٩)

وقال ايضا : (**وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم مايشاؤون فيها ولدينا مزيد**)(١٩٠) وقال ايضا (**ان المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من من عملهم من شيء ، كل**

(١٨٤) التحريم - الاية ٦

(١٨٥) ق - الاية ٣٠

(١٨٦) الصافات - الايات ٦٠ - ٦٧

(١٨٧) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ الموطأ ص ٦١٤

(١٨٨) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٦١ .

(١٨٩) الدخان - الايات ٥١ - ٥٧

(١٩٠) ق - الايات ٣١ - ٣٥

أمرىء بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون)[(١٩١)] وقال رسول الله ﷺ فى وصف نعيم الجنة: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا ان شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)[(١٩٢)]

كذلك نؤمن بما يكون من تحاور وتخاطب بين أهل الجنة وأهل النار ، فانظر الى هذا المشهد فى سورة الاعراف : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا : نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون)[(١٩٣)] ثم قال سبحانه وتعالى (ونادى اصحاب النار أصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : ان الله حرمهما على الكافرين :)[(١٩٤)]

وأما خلود الجنة والنار ، وخلود المؤمنين فى الاولى والكافرين فى الثانية فقد تكرر ذكره والتأكيد عليه فى معظم المواقع التى ذكرت فيها الجنة والنار فى كتاب الله عز وجل . وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (اذا صار أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة : لاموت يا أهل النار : لاموت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا الى حزنهم)[(١٩٥)]

الايمان بقضــــاء الله وقــدره

الايمان بالقدر احد اركان العقيدة الاسلامية ، وهو الركن السادس للايمان ، فمن كفر بالقدر خرج من دين الله عز وجل

وقد تقدم حديث عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال عندما سأله جبريل عن الايمان (ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[(١)]

تعريف القضـاء والقـدر :

اختلفت عبارات العلماء فى تعريف القضاء والقدر ، فمنهم من جعلهما شيئا واحدا ومنهم من عرف القضاء تعريفا مغايرا للقدر ، فقال :

القــــدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات فى المستقبل[(٢)]

والقضـــاء : ايجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وارادته .

(١٩١) الطور – الآيات ١٧ – ٢٤

(١٩٢) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٣٤٧

(١٩٣) الاعراف – الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(١٩٤) الاعراف – الآية ٥٠

(١٩٥) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١١ ص ٣٥١

(١) انظر تخريج الحديث فى ص ٥

(٢) تبسيط العقائد الاسلامية لحسن ايوب ص ٧٧

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر ، وتعريف القدر للقضاء والامر محتمل[٣]

ومن عرفهما تعريفا واحدا قال : (هو النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة ، والسنن التى ربط بها الاسباب بمسبباتها)[٤] وهذا المعنى هو ماوردت به آيات القرآن التى ذكرت القدر ، مثل قوله تعالى (**وكل شىء عنده بمقدار**)[٥] وقوله تعالى (**وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر**)[٦] وقوله تعالى (**انا كل شىء خلقناه بقدر**)[٧]

وما أجمل جواب الامام احمد عندما سئل عن القدر فقال : القدر قدرة الرحمن يقول ابن القيم فى قصيدته الكافية الشافية :[٨]

فحقيقة القدر الذى حـار الورى فى شأنه هو قـدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من احمـد لما حكاه عن الرضى الربانى

والحق أن تعريف احمد رحمه الله تعالى قد كفى وشفى ، فالقدر يعنى ماقرره الله سبحانه فى قوله تعالى (**قل الا الامر كله لله**)[٩] وفى قوله : (**واليه يرجع الامر كله**)[١٠] وفى قوله (بيده ملكوت كل شىء)[١١] وقوله (**يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه**)[١٢] وغير ذلك من الآيات التى تدل على أنه لايحدث شىء فى الكون الا بارادة الله ومشيئته)

وعقيدة القدر مبنية فى حقيقتها على الايمان بصفات الله العلى ، واسمائه الحسنى ومنها : العلم ، والقدرة ، والارادة ، قال تعالى : (**وهو بكل شىء عليم**)[١٣] وقال : (**وهو على كل شىء قدير**)[١٤] وقال (**فعال لما يريد**)[١٥]

قال الطحاوى : (وكل شىء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لامشيئة للعباد الا ما شاء الله ، فما شاء لهم كان ، ومالم يشأ لم يكن ، لا راد لقضائه ،

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ص ١٤٧
(٤) العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٩٥
(٥) الرعد - الاية ٨
(٦) الحجر - الاية ٢١
(٧) القمر - الاية ٤٩

٩٨

(٨) شرح قصيدة ابن القيم ج ١ ص ٢٥٤
(٩) ال عمران - الاية ١٥٤
(١٠) هـود - الاية ١٢٣
(١١) يس - الاية ٨٣
(١٢) يونس - الاية ٣
(١٣) البقرة - الاية ٢٩
(١٤) الحديد - الاية ٢
(١٥) البروج - الاية ١٦

معنى الايمان بالقدر :

ويجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره . ويقصد بالايمان بالقدر الايمان بعلم الله القديم ، والايمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وفى بيان ذلك يقول شيخ الاسلام ابن تيميه . (الايمان بالقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى :

الايمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون ، بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والارزاق والآجال ، ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فأول ما خلق الله القلم ، قال له اكتب ، قا ما اكتب ؟ قال : اكتب ماهو كائن الى يوم القيامة ، فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الاقلام وطويت الصحف ، كما قال تعالى : **الم تعلم ان الله يعلم مافى السماء والارض ، ان ذلك فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير)**[١٧] وقال : **(ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير)**[١٨]

وأما الدرجة الثانية :

فهى الايمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الايمان بان ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . وانه مافى السموات وما فى الارض من حركة ولا سكون الا بمشيئة الله سبحانه ، لايكون فى ملكه مالا يريد ، وانه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق فى الارض ولا فى السماء الا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسلة ونهاهم عن معصيته ، هو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولايحب الكافرين ، ولايرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على اعمالهم ، ولهم ارادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وارادتهم[١٩]

فيتحصل من كلام ابن تيمية رحمه الله ان الايمان بالقدر يشتمل على اربع مراتب هى :

الأولى : الايمان بعلم الله القديم وانه علم اعمال العباد قبل يعملوها

الثانية : كتابة ذلك فى اللوح المحفوظ

الثالثة : مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة

الرابعة : ايجاد الله لكل المخلوقات ، وانه الخالق وكل ماسواه مخلوق .

(١٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٣

(١٧) الحج – الآية ٧٠

(١٨) الحديد – الآية ٢٢

(١٩) انظر الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص ٣٥٢،٣٥٣

هذا وان تقسيم القدر الذى يجب الايمان به الى خير وشر ، انما هو باضافته الى الناس والمخلوقات ، اما بالنسبة لله عز وجل ، فالقدر خير كله ، والشر لاينسب الى الله [٢٠] فعلم الله ومشيئته وكتابته وخلقه للاشياء والحوادث ، هذا كله حكمة وعدل ورحمة وخير ، فان الشر لايدخل فى شىء من صفات الله تعالى ولا افعاله ، ولا يلحق ذاته تبارك وتعالى نقص ولا شر ، فله الكمال المطلق والجلال التام [٢١] ولذلك لا يجوز إضافة الشر الى الله مفردا وانما يجوز ان يدخل الشر فى العموم كقوله تعالى :(**الله خالق كل شىء**) [٢٢] ويجوز ان يضاف الى السبب كقوله تعالى (**قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق**) [٢٣] ويجوز ان يذكر بحذف فاعله ، كقوله تعالى فيما حكاه عن الجن (**وأنا لا ندرى اشر أريد بمن فى الارض أم اراد بهم ربهم رشدا**) [٢٤]

والحق ان الله تعالى لم يخلق شرا محضا من جميع الوجوه ، فان**حكمته** سبحانه تأبى ذلك ، فلا يمكن فى جانبه تعالى ان يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه ، ولا مصلحة فى خلقه بوجه ما ، فانه تعالى بيده الخير كله والشر ليس اليه ، بل كل ما اليه فخير ، والشر انما حصل لعدم النسبة اليه ، فلو نسب اليه لم يكن شرا ، وهو من حيث نسبته الى الله تعالى خلقا ومشيئة وليس بشر [٢٥]

المرض مثلا شر ومصيبة بالنسبة **للانسان** عاجلا ، ولكنه خير فى الآجل ، وخير بالنسبة لله عز وجل لما يعلم ما يعقبه من مغفرة الذنوب ، وتطهير النفوس ، وكذلك سجن اعداء الله للمؤمنين شر فى ظاهره لما فيه من الآلام والمحن ، ولكنه تمحيص للنفوس ، وتطهير للصفوف ، وتربية للارواح ، فضلا عن الثواب الجزيل والخير العميم ، وخلق ابليس فيه حكم كثيرة ظاهرة ، كتوبة البشر بعد الزلل ، واستخراج عبودية المؤمنين لله تعال **بجهاد** ابليس وحزبه ، والصبر على اغرائه واغوائه ، والالتجاء الى حمى الله . واللياذ بركنه الركين [٢٦]

(٢٠) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٨ ص ٩٤ ، ٩٥ . وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٢ والروضة الندية ص ٣٥٦

(٢١) انظر كتاب الحسنة والسيئة لا بن تيمية ص ١٩٠ ، وتيسير العزيز الحميد ص ٥٣

(٢٢) الزمر – الآية ٦٢

(٢٣) الفلق – الآيتان ١ ، ٢

(٢٤) الجن – الآية ١٠

(٢٥) الدين الخالص ج ١ ص ١٤٤ . الروضة الندية ص ٣٥٦

(٢٦) ذكر ابن قيم الجوزية حكما كثيرة مترتبة على خلق ابليس منها :

أ- ان تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التى هى اخبث الذوات وسبب كل شر فى مقابلة ذات جبريل عليه السلام التى هى من اشرف الذوات واطهرها وأزكاها. وهى سبب كل خير وظهرت قدرته سبحانه ايضا فى خلق الليل والنهار والدواء والداء ، والحياة والموت ، والحسن والقبيح. وغير ذلك مما يدل اعظم الدلالة على كمال قدرته سبحانه

ب- ظهور اثار اسماء الله القهرية مثل القهار والمنتقم والشديد العقاب والسريع الحساب . ذى البطش الشديد . والمعز والمذل . فهذه الاسماء والافعال لا بد من وجود ماتتعلق به ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر اثر هذه الاسماء

جـ- ظهور اثار اسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق الاسباب المفضية الى ظهور اثار هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد .

د- ظهور اثار اسماء الحكمة والخبرة فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو اعلم حيث يجعل رسالته . واعلم بمن يصلح لقبولها ويشكر له جميل صنعه

هـ- اظهار واستخراج العبوديات المتنوعة التى لولا خلق ابليس لما ظهرت ... كالجهاد والموالاة والمحبة فى الله ، والبغض فى الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والتوبة الى الله والرجوع اليه ، ومخالفة عدو الله والاستعاذة بالله منه والالتجاء والحذر من الغرور وغير ذلك – انظر مدارج السالكين ج ٢ ص ١٩٤

وهكذا فان كل ما كان شرا انما هو امر نسبى اضافى ، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر بالنسبة الى من هو شر فى حقه ، فله وجهان هو من احدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه الى الخالق سبحانه وتعالى ، خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، واطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها(٢٧)

احتجاج الكفار بالقدر :

هذا وقد اراد المشركون ان يحتجوا بقدر الله ومشيئته على شركهم ، وانه لو لم يشأ لهم الشرك لما وقعوا فيه ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله عز وجل :

(سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا . ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن ، وأن انتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين)(٢٨) فهذا هو جواب رب العزة لمن احتج بقدره سبحانه على معصيته ، ولله الحجة البالغة ، وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح ، لقيامه على امرين بدهيين مسلمين لايمارى فيهما الا من استحب العمى على الهدى ، فاستحق الهلاك ، وهما :

الأول : ان الله عز وجل اذاق الكافرين الاول بأسه ، وانزل بهم عقابه ، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من الجرائم والآثام والكفر والشرك ، لما عذبهم الله ، لانه عادل لا يظلم احدا ، والذى يحتج بقدر الله على الكفر والمعصية لايعدو احد اثنين : فأما أن يكون مؤمنا بوجود الله ، واما ان يكون منكرا ، فاذا كان الاول لزمه الاعتقاد بعدل الله وتنزهه عن الظلم ، لان الظلم نقص لايليق بالخالق ، لانه تجاوز الحد ، والله سبحانه لايعتريه نقص بحال من الاحوال ، ولا شك فى ان عقاب المكره على الفعل ظلم ، والاحتجاج بقدر الله على معصيته ، مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة ، فيه نسبة الظلم اليه ، وهو امر يتنافى مع الايمان بالله عز ، وجل وان كان المحتج بالقدر منكرا لله فان احتجاجه بالقدر تناقض ومماحكة لايستحق الجواب .

الثانى : ان المحتج بالقدر على كفره ومعصيته متقول على الله بغير علم ، اذ كيف يصح للكافر او العاصى ان يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه ، وقدر الله قبل وقوعه غيب لايعلمه الا الله عز وجل مع انه مخاطب قبل اقدامه على عصيان ربه بطاعته والتزام امره ؟ وبعبارة اقرب :

(٢٨) الانعام - الآية ١٤٨

كيف يصح لرجل ان يقول : كتب على ربى ان اسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره ؟ فهل اطلع على اللوح المحفوظ ، فقرأ ما فيه ، حتى يعلم ماكتب الله عليه ، فى وقت كان مخاطبا بالامتناع عن معصية الله السرقة وغيرها ؟

وبمثل هذه الحجة البالغة أجاب سبحانه على هؤلاء المتذرعين بقدر الله فى مواضيع اخرى من القرآن ، من ذلك قوله تعالى :(**واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل ان الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون**)[29]

والواقع ان هذا الاسلوب القرآنى فى الرد على امثال هؤلاء جاء ليصحح للناس منهجهم فى الفكر والنظر، ويبين لهم أن المطلوب منهم هو تنفيذ اوامره سبحانه، واجتناب نواهيه ، وليس المطلوب ان يبحثوا عن غيبه المستور ليكيفوا انفسهم على حسبه . يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى عليه فى ظلال آية الانعام السابقة :

(واللمسة الثانية [30] كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر ، ان الله امرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون ان يعلموه علما مستيقنا .. فأما مشيئة الله فهى غيب لا وسيلة لهم اليه ، فكيف يعلمونه ؟ واذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه .... ان لله اوامر ونواهى معلومة علما قطعيا فنماذا يتركون هذه المعلومات القطعية وراء الحدس والخرص فى واد لايعلمونه .

هذا هو فصل القول فى هذه القضية ان الله لايكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا انفسهم على حسبه . انما يكلفهم ان يعلموا اوامره ونواهيه ليكيفوا انفسهم على حسبها .. وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه انه يهديهم اليه ، ويشرح صدورهم للاسلام .. وهذا حسبهم فى القضية ، التى تبدو عندئذ فى واقعها العملى ، يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته .

ان الله قادر لو شاء على ان يخلق بنى آدم ابتداء بطبيعة لاتعرف الا الهدى او يقهرهم على الهدى ، او يقذف بالهدى فى قلوبهم ، فيهتدوا بلا قهر ..... ولكنه سبحانه شاء غير هذا ؟ شاء ان يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه على الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم الى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم الى الضلال فى غيه وفى عميانه .. وجرت سنته بما شاء ...

فالقضية واضحة ، مصوغة فى ايسر صورة يدركها الادراك البشرى ، فأما المعاضلة فيها والمجادلة ، فهى غريبة على الحس الاسلامى ، وعلى المنهج الاسلامى .. ولم ينته الجدل فيها فى أية فلسفة أو أى لاهوت الى نتيجة مريحة ، لانه جدل يتناول القضية بأسلوب لايناسب طبيعتها ...

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعا عمليا ، تحده أوامر ونواه واضحة ، فالاحالة الى المشيئة الغيبية دخول فى متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذى ينبغى ان ينفق فى العمل الايجابى الواقعى)[31]

(٢٩) الاعراف - الآية ٢٨

(٣٠) يقصد قوله تعالى (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟)

(٣١) فى ظلال القرآن ط دار الشروق ج ٨ ص ١٢٢٧

فيا أخى القارىء انت مطالب قبل الفعل ، بطاعة الله وعدم معصيته ، وبعد الفعل : فان اطعت الله : فعليك شكره اذ هداك ، وان عصيته فأنت مخاطب بوجوب التوبة والرجوع اليه ، ثم ان تكل امرك اليه وتستيقن بعدله وحكمته ، وان تكره المعصية قبل وقوعك فيها ليصدك ذلك عنها ، وبعد وقوعها ليدفعك ذلك الى التوبة الى الله تعالى ولتعلم ان ليس فى كراهيتك للمعصية كراهة قدر الله وانما انت مطالب بكره مايكره الله وحب مايحب ، وان توافق ربك فى رضاه وسخطه فترضى بما رضى به وتسخط مما سخط الله منه ، ولتعلم ايضا ان الله لايحب الكفر ، ولا يرضاه لعباده ولايحب ان يعصى ، ولايرضى ذلك لعباده ، فقد قال سبحانه (**ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم**)[٣٢]

خفاء القدر وكراهة الخوض فيـه :

ذاك مايحتاج اليه المؤمن فى القضاء والقدر ، فيكفيه ان يعلم معناه ودرجاته وأن يؤمن به ، وان الله عليم بكل شيء وخالق كل شيء ومالم يشأ لم يكن ، وانه عادل لا يظلم احدا ، وانه حكيم منزه من العبث ، ولا يحتاج هذا الموضع الى اكثر من ذلك ، وما علم الله حاجتنا اليه بينه لنا ، وما طواه عنا لايجوز ان نتكلف البحث عنه ، فنختلف ونهلك فان عقولنا محدودة ، خلقها الله للاسهام فى عمارة الدنيا ، وليست وظيفتها اكتشاف الغيب الذى استأثر بعلمه خالقها ، وليس امامنا الا التسليم والايمان بما يعرفنا الله عليه من امور الغيب وقضاياه ، ومن هذه القضايا : الصلة بين خلق الله للافعال وارادة الانسان وفعله لهذه الافعال

وليست هذه هى القضية الغيبية الوحيدة التى لايدرك العقل كنهها ، فصفات الله عز وجل ندرك آثارها ، ولا ندرك كيفياتها شأنها شأن الذات الالهية التى لايستطيع العقل البشرى ادراكها[٣٣]

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن الخوض فى القدر والعمق فيه فقد اخرج الامام احمد باسناده عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، قال فكأنما تفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال لهم مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من كان قبلكم[٣٥]

وما أحسن ما قاله الامام الطحاوى رحمه الله (وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان . فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ، فان الله تعالى طوى علم القدر عن انامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)[٣٦] **فمن سأل : لم فعل ؟ فقد**

(٣٢) الزمر – الآية ٧

(٣٣) تبسيط العقائد الاسلامية

(٣٤) انظر الفتح الربانى ج ١ ص ١٤٢ ، وسنن ابن ماجة ج ١ ص٣٣

(٣٥) تيسير العزيز الحميد ص ٦٢٠ العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٩٩. والشريعة للاجرى ص ٢٠٢

(٣٦) الانبياء – الآية ١٢

رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ، فهذا جملة مايحتاج اليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهى درجة الراسخين فى العلم ، لان العلم علمان : علم فى الخلق موجود ، وعلم فى الخلق مفقود ، فانكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود)[37]

أثر عقيدة القدر فى المسلم :

لقد بنى هذا الدين على التسليم لحكمة الله وارادته ، وعدم الاسئلة عن تفاصيل الحكمة الربانية فى الاوامر والنواهى ، وكذلك كان اصحاب الانبياء ، فان قدم الاسلام لاتثبت الا على درجة التسليم ،[38] فأول مراتب تعظيم الامر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة اليه والمبادرة به

وهكذا كان الصحب الكرام ، فقد كانوا شديدى الادب مع ربهم ، ومع رسول الله ﷺ فقد قال فيهم ابن عباس رضى الله عنهما (ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ ، ماسألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض)[39]

وفى مسألة القدر اجمع الصحابة والتابعون وجميع اهل السنة والحديث ان كل كائن الى يوم القيامة ، فهو مكتوب فى ام الكتاب

عن ابن الديلمى قال : أتيت أبى بن كعب ، فقلت له : قد وقع فى نفسى شىء من القدر فحدثنى لعل الله يذهب من قلبى ، فقال : لو ان الله تعالى عذب اهل سماواته وأهل ارضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم ، ولو انفقت مثل احد ذهبا فى سبيل الله ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم ان ماأصابك لم يكن ليخطئك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ، قال : ثم أتيت ابن مسعود فقال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة ، فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد ابن ثابت فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك)[40]

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، قال لابنه عند الموت : يابنى ، انك لن تجد طعم حقيقة الايمان حتى تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما اخطأك لم يكن ليصيبك ، فأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان أول ماخلق الله القلم ، قال له : اكتب ، فقال : يارب وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة ، يابنى انى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات على غير هذا فليس منى[41]

(٣٧) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٦ ، ١٦٢

(٣٨) شرح العقيدة الطحاوية

(٣٩) اعلام الموقعين ج ١ ص ٧١

(٤٠) رواه أبو داود وابن ماجة واحمد الطبرانى وابن حمدان وفى اسنادة سعيد بن سنان الشيبانى وثقة ابن معن وتكلم فيه احمد وغيره — انظر جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١٨ وكتاب الشريعة للأجرى ص ٢٠٣ وصحيح الجامع الصغير ج ٥ ص ٥٧ ،

هذا وقد كان لهذه العقيدة فى نفوس اصحاب الرسول ﷺ اجل الامل فقد انطلقوا فى الارض وهم يحملون عقيدة القدر ، كما علمهم اياها رسول الله ﷺ فقد قال لابن عباس رضى الله عنهما : (ياغلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك . وان اجتمعوا على ان يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف)(٤٢)

هذه العقيدة سكبتْ فى قلوبهم السكينة ، وافاضت على نفوسهم الطمأنينة ، وربتهم على العزة ، فارتاحت اعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين الى البشرية ، وقد استصغروا قوى الأرض جميعا امام ايمانهم بقدر الله سئل سلمان الفارسى : ما قول الناس حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ؟ فقال : (حتى تؤمن بالقدر : تعلم ان ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك)(٤٣) ولم يكن هذا قول سلمان فحسب وانما كان قول اصحاب رسول الله ﷺ جميعا .

فأية سعادة تضفيها على النفس هذه العقيدة ، واية شجاعة انطوت عليها قلوب آمنت ان الامر بيد الله وان البشر لا أمر لهم : ان قوى الارض جميعا لاتقف امام انسان يحمل هذا المبدأ ، ويكن بين جنباته هذا الايمان ، ومن هنا نجد التفسير الصحيح للاعمال التى حققها هذا الايمان على يد العصبة المؤمنة التى انطلقت بهذا الدين ، انها اعمال تشبه الخوارق ، ولكنها حقائق ، ان تلك الانجازات العظيمة التى حققها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ان هى الا ثمرة ايمانهم بالله واليوم الآخر وقدر الله عز وجل .

ان الانسان الذى ينعم بعقيدة القدر ، ويعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان الامة لو اجتمعت لن تضره الا بشىء قد كتبه الله عليه ، وانه لن تمت نفس حتى تستكمل رزقها واجلها ، انه هذا الانسان هو وحده الذى يتحرر من العبودية للعباد بدخوله فى العبودية لرب العباد ، اذ كيف تنحنى جبهته لاية قوة على ظهر الارض ، وهو يعلم ان الامر بيد خالق السموات والارض ومن فيهن ؟ وكيف تذل نفسه لعبد من تراب ؟ يقول ابن رجب رحمه الله تعالى : (فمن تحقق ان كل مخلوق فوق التراب فهو تراب ، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الارباب ؟ ام كيف يرضى التراب بسخط المالك الوهاب ؟ ان هذا لشىء عجاب)(٤٤)

ان هذه العقيدة لتنتزع كل مظهر للجبن من القلب الذى تعمره ، فتدفع صاحبها الى جهاد الكفار والطغاة دون ان يحسب لوسائلهم وأساليبهم اى حساب ، ولماذا ينشغل بالحساب لهم وقد ضمن له خالقه وخالقهم ان يستوفى رزقه وأجله . ولماذا يجبن وهو يعلم ان المقدور نازل به لامحال ، وغير المقدر لن يحيق به ابدا ، فما احسن قول من قال :

(٤٢) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح – انظر جمع الفوائد ج ٢ ص ٣٢٩

(٤٣) الشريعة للأجرى ص ٢٦

(٤٤) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٣٨٥

أى يومى من الموت أفـــر   يوم لاقـدر أو يوم قـــدر
يوم لا قـدر لا أرهبــــه   ومن المقدور لاينجو الحذر

ان النفس المؤمنة بقدر الله سبحانه لتنعم بنعمة اخرى لاتعدلها نعم الدنيا كلها ، انها نعمة الرضا فى كل حال ، ذلك ان هذه النفس ترى ان المقادير تجرى بأمر الله عز وجل ومشيئته وتدبيره ، وان الاحداث تنبثق بحكمة الله وارادته ، وهو يعلم والناس لايعلمون كما قال تعالى : (**وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون**)(٤٥)

فتعلم هذه النفس المؤمنة ان الله الذى قدر لها الخير أو الشر حكيم رحيم فلا تبطر بنعمة ، ولا تجزع من مصيبة ، فهى شاكرة فى السراء ، صابرة فى الضراء ، امرها كله خير ، كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام :(عجبا للمؤمن ، ان امره كله له خير ، وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(٤٦)

فالمؤمن من ينظر الى المصيبة ، فيعلم انها قدر الله ، فيطمئن ويرضى ، فيكون اكثر أدبا من أن يعترض على مولاه وخالقه ، وينظر الى عاقبة المصيبة ومآلها من الثواب ، فيرضى ويصبر وفى الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال(اشد الناس بلاء الانبياء ، والامثل فالامثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة ابتلى على قدر ذلك ، وان كان فيه رقة ، هون عليه ، فما يزال البلاء بالرجل ، حتى يدعه يمشى على الارض ، وليس عليه خطيئة)(٤٧)

وقد عبر عن ذلك ابن القيم أجمل تعبير ، فقال :

واذا اعترتك بليـة فاصبر لها   صبر الكريم فانه بك أكـــرم
واذا شكوت الى ابـن آدم انما   تشكو الرحيم الى الذى لايرحم

وهذا علقمة رحمه الله يفسر قوله تعالى :(**ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه**)(٤٨) فيقول : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم(٤٩) وقال ابن عباس : يهدى قلبه اليقين ، فيعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(٥٠)

ولقد ارتفعت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم فى ظلال هذا التصور الايمانى ، وسمت ارواحهم ، وارهفت ضمائرهم ، حت استوت فى نظرهم السراء والضراء ، وتماثل لديهم الشكر والصبر ، كما يقول عمر رضى الله عنه (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت ايهما اركب) ويقول ابو محمد الحريري (الصبر ان لا يفرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما)

(٤٨) التغابن – الآية ١١

(٤٩) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧٥

(٥٠) المرجع السابق

وقد سئل الامام احمد عن الرجل يكون معه مائة الف دينار هل يكون زاهدا ؟ قال : نعم بشرط ان لايفرح اذا زادت ، ولا يحزن اذا نقصت ، وقال بعض السلف ، الزاهد من لايغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره[٥١]

وكتب عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما (أما بعد ، فأن الخير كله فى الرضا ، فان استطعت ان ترضى ، والا فاصبر)[٥٢] وقال ابن عطاء : (الرضى سكون القلب الى قديم اختيار الله للعبد انه اختار له الافضل)[٥٣]

هذا والصبر واجب باتفاق العلماء ، واعلى من ذلك الرضا بحكم الله وقيل عن الرضى انه واجب ، وقيل هو مستحب ، وقد اجمع العلماء على ان حكمه لايقل عن الاستحباب[٥٤]

وأساس الرضا الايمان بقدر الله عز وجل ، كما تقدم واستشعار لطف الله بعباده قال عبد الواحد بن زيد : (الرضا باب الله الاعظم ، وجنه الدنيا ، ومستراح العابدين ، واهل الرضا ، يلاحظون ثواب المبتلى ، وخيرته لعبده فى البلاء وانه غير متهم فى قضائه ، وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء ، فينسيهم الم المقضى به ، وتارة يلاحظون عظمة المبتلى وجلاله وكماله ، فيستغرقون فى مشاهدة ذلك حتى انهم لايشعرون بالالم ، بل ربما يتلذذون بما اصابهم لملاحظة صدوره من حبيبهم)[٥٥]

ولتعلم ايها الاخ القارىء ان الرضا والصبر اللذين يثمرهما الايمان بالقدر انما هما الرضا بالمقدور من المصائب والنوائب ، والصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، وعلى انواع المكاره[٥٦] وليس المقصود الرضا بالكفر والعصيان والفسوق عن امر الله ، ولا الصبر على الذل والضيم ، فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية والهوان فليكن رضاك تبعا لرضى ربك ، وصبرك فى طاعة الله وفى سبيله

ان الرضا بالقدر والصبر على البلاء ، الطمأنينة الى حكم الله عز وجل ، فهى اهم القواعد التى يقام عليها السكن النفسى ، وهى من ابرز الدوافع لانطلاق جميع الطاقة البشرية للعمل فى هذه الارض ضمن منهج الله . فلا التفاوت للوراء ولا محطات للتحسر والندم ، ولا لو كان كذا وكذا لكان كذا وكذا ولكن قدر الله وماشاء فعل .

ففى هذه العقيدة هدوء القلب وراحة البدن والنفس والاعصاب ومفارقة الهم ، والحزن ، فلا تمزق نفسى ، ولا توتر عصبى ، ولا شذوذ ، ولا انفصام ، وانما رضا وسكنية وسعادة وراحة وطمأنينة ، وبرد اليقين ، وقرة العين ، وهناءة الضمير ، وانشراح الصدر ، والاطمئنان الى رحمة الله وعدله ، وعلمه وحكمته ، فهو الملاذ والمعاذ من الوسواس والهواجس

(٥١) انظر هذه الاقوال وغيرها فى عدة الصابرين ص ٩٠، ٢٢٦

(٥٢) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٧٧

(٥٣) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٧٥

(٥٤) مدارج السالكين ص ١١٧ والروضة الندية ص ٤٨٩

(٥٥) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٦٧ والروضة الندية ص ٤٨٦ وجامع العلوم والحكم ص ١٧٠

(٥٦) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠١

ان الاعتقاد بعقيدة القدر يحدث فى واقع الناس وفوق هذه الارض نتائج ايجابية هائلة

وأما المجتمعات التى تركت هذه العقيدة ، وفرغت من الايمان بالله وتدبيره لشؤون الحياة والاحياء ، فنصيبها فى الآخرة خلود فى العذاب المهين ، وفى هذه الدنيا ضياع السعادة ، وتمزق الاعصاب ، وضنك العيش وتوتر الحياة ، مصداقا لقوله تعالى :(**فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى)**[٥٧]

الايمان بالقدر لاينافى الاخذ بالاسباب :

ويجب ان لايغيب عن بالنا اننا مأمورون بالاخذ بالاسباب ، مع التوكل على الله عز وجل ، والايمان أن بيده ملكوت كل شىء ، والايمان ان الاسباب لاتعطى النتائج الا باذن الله سبحانه وتعالى ، فالذي خلق الاسباب هو الذى خلق النتائج والثمار فمن اراد النسل الصالح فلا بد ان يتخذ لذلك سببا ، وهو الزواج الشرعى ، ولكن هذا الزواج قد يعطى الثمار ، وهى النسل ، وقد لايعطى ، حسب ارادة العزيز الحكيم ، ومشيئة اللطيف الخبير (**يهب لمن يشاء اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، او يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، انه عليم قدير(٥٨)**

ولذا يحرم على المسلم ترك الاخذ بالاسباب ، فلو ترك انسان السعى فى طلب الرزق لكان آثما ، مع ان الرزق بيد الله تعالى .

وقد بين رسول الله ﷺ ان الاسباب المشروعة هي من القدر ، فقيل له : أرأيت رقى نسترقى بها ، وتقى نتقى بها ، وادوية نتداوى بها ، هى ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله[٥٩]

فالالتفات الى الاسباب ، واعتبارها مؤثرة فى المسببات ، شرك فى التوحيد ، ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل ، والاعراض عن الاسباب المأمور بها قدح فى الشرع[٦٠]

لذا فقد أمر النبى ﷺ بالتداوى ، فقد روى اصحاب السنن عن اسامة بن شريك قال : اتيت النبى ﷺ واصحابت فكأنما على رؤوسهم الطير ، فسلمت ثم قعدت ، فجاء الاعراب من ههنا وههنا ، ، فقالوا : يارسول الله ، التداوى فقال : تداووا ، فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم)[٦١] وفى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما انزل الله داء الا انزل له شفاء)[٦٢] وبناء على هذا الامر بالتداوى قال الفقهاء باستحبابه وبعضهم قال بوجوبه

قال شارح العقيدة الطحاوية (وقد ظن بعض الناس ان التوكل ينافى الاكتساب وتعاطى الاسباب ، وان الامور اذا كانت مقدرة فلا حاجة الى الاسباب ، وهذا فاسد فان الاكتساب : منه فرض ومنه

(٥٧) طه - الآية ١٢٤

(٥٨) الشورى ، الآية ٤٩

(٥٩) انظر : زاد المعاد ج ٣ ص ٦٦

(٦٠) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٨ ص ٥٢٨

(٦١) رواه الاربعة . وقال الترمذى . حسن صحيح - انظر مختصر ابى داود ص ٣٤٦

(٦٢) اخرجه البخارى فى كتاب الطب

مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ... وقد كان النبى ﷺ افضل المتوكلين ، يلبس لامة الحرب ، ويمشى فى الاسواق للاكتساب)[٦٣]

وهكذا كان فهم الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، للعلاقة بين الايمان بالقدر وتعاطى الاسباب ، وان هذا التأنى داخل فى معنى الايمان بالقدر ، ولا ينافيه ، وانما هو مقتضى من مقتضياته ، روى البخارى ان عمر رضى الله عنه لما خرج الى الشام لقيه امراء الامصار ، واخبروه بانتشار الوباء فيها ، فاستشار المهاجرين والانصار ، ثم مهاجرة الفتح من مشايخ قريش ، فاجتمع المهاجرة على الرجوع ، بعدا عن الوباء ، وأمربذلك عمر ، فقال له ابو عبيدة : افرارا من قدر الله أرأيت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة ، اليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله[٦٤]

ولذا بكت عمر بن الخطاب جماعة من اهل اليمن كانوا يحجون بلا زاد ، فذمهم ، قال معاوية بن قرة : لقى عمر بن الخطاب ناسا من اهل اليمن، فقال : من انتم ، قالو : نحن المتوكلون ، قال : بل انتم المتآكلون ، انما المتوكل الذى يلقى حبة فى الارض ، ثم يتوكل على الله[٦٥]

يقول ابن قيم الجوزيه :(لا تتم حقيقة التوحيد الا بمباشرة الاسباب التى نصبها الله تعالى ... وان تعطيلها يقدح فى نفس التوكل .. وان تركها عجزا ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله فى حصول ماينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الاسباب ، والا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ، ولا توكله عجزا ...[٦٦]

وقال سهل بن عبد الله من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان فالتوكل حال النبى ﷺ والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يرتكن سنته

(٦٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠١

(٦٤) فتح البارى ج ١ ص ١٥ ص ١٥١ ص ٥٥٧ ، ٨٥٥

(٦٥) جامع العلوم والحكم ص ٢٨٤

(٦٦) زاد المعاد ج ٢ ص ١٧

(٦٧) مدارج السالكين ج ٢ ص ١١٦

حقيقـــة الايمـــان

تلك هي الامور التي يجب أن نؤمن بها ، ولكن مامعنى الايمان بها ؟ وكيف يكون ؟ وما الشيء الذى يصدق عليه هذا الاسم ؟

اختلف أهل العلم في هذا الموضوع على قولين[1]

القول الأول : ان الايمان اسم يقع على الاقرار باللسان ،والتصديق بالقلب ، والعمل بالجوارح ، وهو القول الذى ذهب اليه معظم اهل السنة[2]

القول الثاني : ان الايمان اسم يقع على الاقرار باللسان والتصديق بالقلب ، ولا يدخل فيه العمل بالجوارح ، ولكنهم يقولون : ان العمل بكل ما صح عن رسول الله من الشرائع والبيان حق وواجب على المؤمنين الذين اكتسبوا هذا الاسم بالاقرار والتصديق[3]

ومع أن الادلة من الكتاب والسنة اظهر فى القول الاول . وادل عليه من القول الاخر[٤] ومع ان كل فريق منهما حاول دعم وجهة نظره بجملة من الادلة فان الظاهر ان الخلاف بينهما خلاف نظرى ، لايترتب عليه اى اثر عملى ، وان كان قد يترتب عليه خلافات نظرية اخرى ، يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية (والاختلاف الذى بين ابى حنيفة والائمة الباقين من اهل السنة ، اختلاف صورى فان كون اعمال الجوارح لازمة لايمان القلب او جزءا من الايمان مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج من الايمان ، بل هو فى مشيئة الله ، ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه نزاع لفظى لايترتب عليه فساد اعتقاد)[٥]

وسبب ذلك – والله اعلم – ان العمل بالجوارح ،لا يختلف الفريقان فى تحديد قيمته وأهميته فى دين الله ، وان اختلفوا فى تكييفه ، ان كان جزءا من الايمان أو مجرد مقتضى من مقتضياته ولازما من لوازمه ، فالذين اعتبروه جزءا من الايمان لم يجعلوه كالاقرار باللسان والتصديق بالجنان ، من حيث ذهاب اسم الايمان بذهابهما وعدم ذهاب هذا الاسم بعدم العمل ، والاخرون وان لم يعتبروه من اجزاء الايمان فهم يرون وجوبه ، لانه من لوازم الايمان .

واذا كان كذلك ، فان الخوض والتعمق فى تلك القضية ليس له فائدة كبيرة والاولى الاهتمام بغيرها ، ولكن من المفيد بيان بعض المعايير المستنبطة من ذلك القدر المشترك بين الفريقين ، والتى يمكن بها تحديد من يدخل من الناس فى مسمى الايمان ومن لايدخل :

١ –فقد اتفقوا على انه لايدخل فى الايمان من اقر بلسانه ، ظاهرا ، وكذب بقلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، الذين اخبر الله تعالى عنهم انهم اشد عذابا من الجاحدين وانهم فى الدرك الاسفل من النار[٦]

٢ –كما اتفقوا على ان المعرفة بالقلب لاتكفى فى تحقيق اسم الايمان ، فلا بد مع المعرفة والتصديق من الاقرار باللسان فان فرعون وقومه كانوا يعرفون صدق موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا كافرين ، قال تعالى مخبرا عما قاله موسى لفرعون :(**لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر**)وقال تعالى (**وجحدوا بها ،واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر**

(٤) انظر فى ترجيح القول الاول : شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٨ ورسالة الايمان لابى عبيد القاسم بن سلام ص ٥٤

(٥) شرح العقيدة الطحاوية

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٧

(٧) الاسراء – الاية ١٠٢

كيف كان عاقبة المفسدين)[٨] وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبى ولم يؤمنوا به قال تعالى (**الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ، الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون)**[٩] بل ان ابليس كان عارفا بربه ولكنه امام الكافرين[١٠]

فأهل السنة متفقون على ان المؤمن الذى يحكم بأنه من اهل القبلة ولايخلد فى النار لايكون الا من اعتقد بقلبه دين الاسلام اعتقادا جازما ، خاليا من الشكوك ، ونطق بالشهادتين ، فان اقتصر على احد هذين الامرين لم يكن من اهل القبلة اصلا ، اللهم الا اذا كان تخلفه عن النطق لخلل فى لسانه ، او لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية له قبل النطق أو لاكراه ملجىء منعه من النطق[١١]

وأجمع اهل السنة على ان الله يطلب من العباد قولا وعملا ، والمقصود بالقول قول القلب وهو التصديق ، وقول اللسان وهو الاقرار ، انما اختلافهم فى كون هذا المطلوب جميعه داخلا تحت اسم الايمان ، فبعضهم ادخله جميعه بما فيه من قول وعمل ، واخرون ادخلوا جزءا منه ، وجعلوا الجزء الاخر من مقتضياته وثماره .[١٢]

-وأجمعوا ايضا على ان العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه ، وامتنع عن العمل بجوارحه فانه يكون عاصيا لله ولرسوله ، ومستحقا للوعيد الذى ذكره الله فى كتابه ، واخبر به الرسول الكريم عليه افضل الصلاة واتم التسليم[١٣]

-واجمعوا ايضا على ان مرتكب الكبيرة ليس كافرا مادام غير مستحل لها . وان مات قبل التوبة عنها ، فالجمهور من أهل السنة ، وان جعلوا العمل جزءا من الايمان ، الا انهم لم يقولوا بتكفير المصدق بقلبه المقر بلسانه ان لم يعمل ،والحنفية وان أخرجوا العمل من الايمان الا انهم اعتبروه من لوازمه ومقتضياته والكل متفقون على عدم الكتفير بترك العمل[١٤]

(٨) النمل - الآية ١٤

(٩) الإنعام - الآية ٢٠

(١٠) كتاب الايمان للقاسم بن سلام ص ١٠٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٢ ، ٣٧٤

(١١) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٩

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٤

(١٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤

(١٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥

—ولا خلاف بين اهل السنة ان ماتقدم من تعريف الايمان بالقول والتصديق والعمل انما هو بالنظر الى ماعند الله تعالى ، واستحقاق دخول الجنة وعدم الخلود فى النار ، وان الايمان بالنظر الى احكام الدنيا ، فهو مجرد الاقرار باللسان والنطق بالشهادتين : فمن اقر بهما اجريت عليه الاحكام فى الدنيا ، فطولب بالتزاماتهما ، واعطى حقوقهما ، ولم يحكم عليه بكفر الا اذا جاء بما ينقضهما ، من القول والعمل[١٥]

ويدل على هذا الاصل حديث اسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلا فقال : لا اله الا الله ، فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك ، فذكرته للنبى ، فقال رسول الله ﷺ اقال لا اله الا الله وقتلته ؟ قال : يارسول الله انما قالها خوفا من السلاح ، قال : افلا شققت عن قلبه حتى تعلم اقالها ام لا ؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ[١٦] فيدلك قوله عليه الصلاة والسلام (أفلا شققت عن قلبه) اننا مكلفون بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان واما القلب فليس لنا طريق الى معرفة مافيه .

زيادة الايمان ونقصـه :

وبناء على ماتقدم من اختلاف الفريقين السابقين فى تحديد مسمى الايمان ، اختلفوا ايضا فى قضية اخرى هى زيادة الايمان ونقصه فمن ادخل العمل فى مسماه قال بذلك ومن قصره على الاقرار والتصديق لم يقل بها ، أما وقد عرفت ان الخلاف فى تحديد مسمى الايمان خلاف نظرى وصورى فكذلك الخلاف فى هذه القضية ذلك ان الفريق الذى لايرى زيادة الايمان ونقصه يصرح بأن الناس يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ويتفاوتون فى الاجر والمكانة عند الله تعالى ، يقول الامام الطحاوى فى العقيدة الطحاوية (والايمان واحد ، واهله فى اصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الاولى)[١٧]

وعلى أية حال فان ظواهر النصوص القرآنية الكريمة ، والنبوية الشريفة تدل على ان الايمان يزيد وينقص ، من هذه النصوص قوله تعالى : (**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون**)[١٨] وقوله تعالى (**الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**)[١٩] وقوله (**هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم**)[٢٠] ومن الاحاديث الدالة على هذا قول النبى

(١٥) فتح البارى ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠

(١٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٩٩

(١٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥

(١٨) الانفال — الآية ٢

(١٩) ال عمران — الآية ١٧٢

(٢٠) الفتح — الآية ٤

ﷺ (الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان)[٢١] وقوله ايضا : (اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا)[٢٢] وقوله (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان)[٢٣]

وعن عبد الله بن مسعود ان رسول الله ﷺ قال :(ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من امته حواريون واصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقلون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل)[٢٤]

ومن أقوال الصحابة الدالة عليه ، ما ورد عن ابى الدرداء رضى الله عنه انه قال : (من فقه العبد ان يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد ان يعلم ايزداد هو ام ينقص) وكان عمر رضى الله عنه يقول لاصحابه (هلموا نزداد ايمانا فيذكرون الله عز وجل) وامثال هذا من النصوص والآثار الدالة على قوة الايمان وضعفه بحسب العمل كثير[٢٥]

واذا كان ظاهر النصوص يدل على زيادة الايمان ونقصه ، فلا داعى للخروج عن هذا الظاهر ، خاصة وانه لافائدة من التأويل ، ولا ثمرة فى الخلاف

على ان الامر الاهم من ذلك ان يتعهد المؤمن ايمانه ويحاسب نفسه فيه ان كان زاد ام نقص ، وان ينظر فى اسباب نقصانه ان كان نقص ، فيتحاشاها ويبتعد عنها ، ويلتمس اسباب الزيادة والنماء وصلاح القلب ، كما كان يفعل الصحابة رضوان الله علهم .

ومن اهم اسباب زيادة الايمان مايلى :

(٢١) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ ص ٤٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٦

(٢٢) رواه الترمذى والحاكم وقال صحيح على شرطهما وقال الترمذى حديث حسن – انظر : الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٠٣

(٢٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٢

(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٢٧

(٢٥) انضر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٦

١ – العلم : فان الاستزادة منه سبب فى زيادة اليقين والمعرفة ، قال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما :(تعلمنا الايمان ، تعلمنا القرآن فزدنا ايمانا)[٢٦] والمقصود فى هذا المقام العلم بالله واسمائه وصفاته وافعاله ، وايامه سبحانه وتعالى والعلم برسول الله ﷺ وما جاء به من الاخلاق والمناهج والتشريعات وسيرته فى عبادته وجهاده ومعاملته ، والعلم بكتاب الله وما فيه من الاخبار والامثال والحكم والصبر والفرقان

ذلك ان اصل الايمان هو الاقرار بالوهية الله وما يليق به من الصفات والاعتراف برسالة محمد ﷺ وبكل ماجاء به من عند ربه ، بصورة اجمالية وهى المتمثلة بالشهادتين فمن قالهما معتقدا بهما فقد حاز اصل الايمان ولكنه لايستوى مع من علم معناهما ومقتضياتهما . بالتفصيل ، فلا يستوى من علم بالتفصيل ما اخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت من السؤال والعذاب والنعيم ومن لم يعلم بذلك ، وان كان هذا يدخل بصورة اجمالية فى شهادة ان محمدا رسول الله وكذلك لايستوى من علم احوال الآخرة بما يكون فيها من بعث ونشور وعرض وقراءة الصحف وحساب واهوال وحوض وصراط وجنة ونار ، مع من آمن باليوم الآخر اجمالا من غير تفصيل ، وكذلك من علم بالتفصيل سيرة المصطفى ﷺ وما فيها من كمال ، لايستوى معه من لم يعرفها الا بالاجمال ، ولذا قال الله سبحانه (**انما يخشى الله من عباده العلماء**)[٢٧] وقال (**هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون**)[٢٨]

٢ – العمل : فانه بالاكثار من العمل الصالح والطاعة يزداد اليقين بمعنى الايمان والاقلال من العمل بالاغراق فى الشهوات والمعاصى يضعف الايمان وقد يصل الحد ببعض الناس من كثرة معاصيهم الى الانكار والاستحلال وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام تبريرا لفجورهم وفسوقهم فيدخلون بالكفر والعياذ بالله

ذلك ان اساس الايمان بالله – كما علمت – هو الاقرار له بالالوهية والاخلاص له بالعبودية وهذا الاقرار والاعتراف فى الواقع نوعان اعتراف نظرى بالتصديق واعتراف عملى بالطاعة والتطبيق فمن اقتصر على الأول كان ايمانه بالله ناقصا وبقدر مايزداد من طاعة يزداد من الايمان ولابد لتمام الايمان من النوعين كليهما .

(٢٦) انظر شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ١٤١

(٢٧) فاطر ، الآية ٢٨

(٢٨) الزمر – الآية ٩

٣ الذكر والفكر : والمقصود بالاول ذكر الله بصفاته وما يليق بجلاله وعظمته ، وتلاوة كلامه وآياته فانه يديم ايصال القلب بالخالق وقلته تورث النسيان والغفلة عن الله عز وجل ، وقد تقدم دعوة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاخوانه من الصحابة الى زيادة ايمانهم بذكر الله وقد روى عن ابى جعفر عن جده عمير بن حبيب وهو من اصحاب رسول الله قال (الايمان يزيد وينقص ، قيل له وما زيادته ونقصانه ؟ قال (ان ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه) وكان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد الرجل من اصحابه يقول (قم بنا نؤمن ساعة فنجلس فى مجلس ذكر) (٢٩)

كما اخبر سبحانه وتعالى ان من صفات المؤمنين انهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) (٣٠)

والمقصود بالفكر العمل على ادامة رؤية صنع الله بالتفكير فى مخلوقاته ، والنظر الى آياته ومعجزاته ، ذلك ان من الايمان بالله الاستشعار بعظمته وقدرته وجليل صفاته وعظمة افعاله وهذا الاستشعار متفرع من دوام النظر الى ملكوت الله عز وجل . ووسيلة هذا النظر هو التفكر والاعتبار ، الا ترى لو انك اخبرت بمهارة شخص فى صناعة من الصناعات ، واخبرك كثيرون عن قدرته فى مضماره فان احساسك بمهارته يزداد اذا رأيت بعينيك نموذجا من صناعتة ولو بصورة اجمالية فاذا شاهدت نماذج اكثر من صناعته ازداد ذلك الاحساس ، ويزداد اكثر واكثر اذا اتيحت لك الفرصة بتفحص هذه الصناعات والتدقيق فيها ، وصفات الله عز وجل وافعاله العظيمة متجلية للجميع فى هذا الكون العظيم ، ومن الناس من يخرون عليها صما وعميانا ولايتجاوزن مافيها من المتع والشهوات وهؤلاء هم الكافرون وضعاف الايمان ، ومنهم من يقرأ فيها عظمة الله وعظمة سلطانه ، وقدرته وتدبيره فيزدادون ايمانا ويقينا ، وهؤلاء الذى وصفهم البارى عز وجل بقوله (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) (٣١) وقال عنهم سبحانه (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) (٣٢) وأما اولئك فقال عنهم (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمي فهم لايرجعون) (٣٣)

(٢٩) شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤١

(٣٠) ال عمران الاية ١٩١

(٣١) ال عمران الاية ١٩١

(٣٢) الفرقان الاية ٧٢

القسم الثانى

فـــى

نواقض الايمـــان

عرفت فيما تقدم مايجب على المؤمن أن يقر به من الامور ، ولا ينكره ، كما عرفت فى مبحث (حقيقة الايمان) معنى الايمان الذى يجب أن يتعلق بهذه الامور .

ونخصص هذا القسم لمعرفة الامور التى تنقض ايمان العبد ، وتخرجه من عداد المؤمنين ، وتدخله فى عداد الكافرين .

على ان توضيح هذا الأمر يقتضى ان يقدم له ببحث يكشف لنا عن مبدأ الايمان والاسلام ، اى الحد الذى اذا وصلة العبد المكلف من البشر ، اعتبر مؤمنا ومسلما ، واذا قصر عنه اعتبر كافرا ، وجرت عليه احكام الكفر فى الدنيا والاخرة ، ان لم يبدل ولم يغير ، ومات قبل ان يصل الى ذلك الحد الذى يصير به مؤمنا ، وذلك لنكون على بينة من حدود الايمان ، وحدود دائرة الكفر ، قبل الكلام فيما يخرج من الاولى ويدخل فى الثانية .

ومن هنا كان هذا القسم مشتملا على مبحثين ، يعتبر الاول منهما مقدمة للثانى وهما :

الاول – متى يصير الكافر مؤمنا(كيفية الدخول فى دين الله عز وجل)

الثانى – متى يصير المؤمن كافرا (نواقض الايمان)

متى يصير الكافر مؤمنا

كيفية الدخول فى دين الله عز وجـل

يظهر لك مما تقدم أن أركان الايمان لها اجمال وتفصيل ، وان لكل ركن منها اجمالا وتفصيلا فمن عرف تفصيل تلك الاركان ، وصدق بها ، وعمل بما تقتضيه من الاعمال ، كان ممن قال عنهم الله عز وجل(**اولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ورزق كريم**)[١]

ولكن شاءت حكمة الله ، تبارك وتعالى ، تيسيرا على عباده ، وتفضلا عليهم ، ان يجعل الباب الذى يلجه العباد الى الايمان دون ذلك التفصيل ، فاكتفى منهم بالاجمال الذى يندرج تحته التفصيل : فقبل منهم فى مبدأ الأمر أن يقروا بألسنتهم وقلوبهم بأن الله سبحانه هو ربهم ومعبودهم بحق ، دون سواه ، وأن محمداً ﷺ هو رسول الله وان جميع ما جاء به من عند ربه حق وصدق ، وواجب العمل به ، وجعل لذلك عنوانا ، هو الكلمة الطيبة (لا اله الا الله ، محمد رسول الله)

فمن قال هذه الكلمة بلسانه ، وصدق بها بجنانه ، ولم يقرنها بما ينقضهامن القول أو العمل أو الاعتقا ، دخل فى دين الله ، وفارق الكفر الذى كان عليه[٢]

ادلـة الأصـل المتقـدم :

والذى يدل على أن المطلوب هو الاقرار الاجمالى بأمور الايمان ، وهو الاقرار بالشهادتين . وليس الاقرار التفصيلى بكل خصلة من خصال الايمان والاسلام ، هو جملة احاديث صحيحه ، رتبت حصول الايمان والاسلام ، واستحقاق دخول الجنة وعدم الخلود فى النار ، على التصديق بأن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله

(١) الانفصال - الاية ٤

(٢) وقد يقول قائل : ولكن أركان الايمان كما جاءت فى الحديث الصحيح اكثر من الايمان بالله. والايمان برسوله ، فكيف يكتفى بالشهادتين . لدخول الايمان ؟ والجواب على ذلك ان الايمان نوعان : ايمان مجمل ، وايمان مفصل، فالاول هو الايمان بالله وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ من غير تعرض لتفصيل ما جاء به فعندما يشهد العبد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، يكون قد صدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وما أخبر به من اركان الايمان واركان الاسلام وان لم يعرفها بالتفصيل فان مقتضى ما صدر منه من الشهادتين انه اذا بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ آمن به وصدق ، لكن الذى بلغه التفصيل بالفعل ، فآمن به وعمل به ، يكون اقوى ايمانا واعظم فضلا عند الله تعالى.

وأما من آمن ايمانا مجملا ، ثم بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ فلم يؤمن به كان ناقضا لما صدر منه من الشهادتين ، وكان مرتدا بذلك كما سيأتى - انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية - من كتاب مجموعة التوحيد : ص ٥١٠، واصول السرخسى ج ١ ص ٢٥٣

وكذلك حوادث السيرة التى دلت على ان الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يحكمون بدخول الشخص فى الاسلام اذا نطق بالشهادتين ولا يطالبونه فى أول الامر ان يقرنهما بغيرهما .

وفيما يلى نذكر لك بعض الاحاديث الصحيحة الدالة على ذلك الاصل ، ثم نتبعها بذكر بعض وقائع السيرة الدالة عليه :

الاحاديـــث :

فمن هذه الاحاديث :

١ – قال رسول الله ﷺ : (اشهد أن لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ، لايلقى الله بهما عبد غير شاك بهما ، الا دخل الجنة)[٣] وفى رواية (لا يلقى الله بهما عبدا ، غير شاك ، فيحجب عن الجنة)[٤]

٢ – وقال ﷺ : (من مات وهو يعلم انه لا اله الا الله دخل الجنة)[٥]

٣ – وعند عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار)[٦]

وغير هذه الاحاديث مما هو فى معناها كثير[٧] وكلها يدل على أن من مات على التوحيد ، ولقى الله عز وجل بالشهادتين دخل الجنة ، ولو فى المآل ، ولم يخلد فى النار ، وأن عذب فيها على ماكان منه من المعاصى والذنوب .

السنة العملية ووقائع السيرة :

وفى السنة العملية ، والسيرة المطهرة ، نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشهد بالاسلام والايمان ، لمن أقر بالشهادتين ومن ذلك :

١ – أخرج مسلم ومالك فى الموطأ وأبو داود والنسائى من حديث معاوية بن الحكم السلمى ان النبى ﷺ قال لجارية اراد معاوية بن الحكم أن يعتقها عن كفارة : أين الله ؟ فقالت : فى السماء ، فقال : من أنا ؟ قالت أنت رسول الله ؟ فقال : اعتقها[٨]

٢ – واخرج أبو داود والنسائى من حديث الشريد بن سويد الثقفى ، أن النبى ﷺ قال لجارية: من ربك ؟ قالت : الله قال : فمن أنا : قالت رسول الله ، قال اعتقها فأنها مؤمنة[٩]

٣ – وفى قصة اسلام ابى بكر رضى الله عنه ، جاء فى السيرة انه لقى رسول الله ﷺ وقال له : احق

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢٢٤
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٤٢٦
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢١٨
(٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢٢٩
(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢١٨ – ٢٤٠

(٨) انظر : الموطأ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ونيل الأوطار ج ٧ ص ٢٠٨
(٩) انظر : نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٠٨

ما تقول قريش يامحمد ؟ من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، تكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ بلى انى رسول الله ونبيه ، بعثنى لابلغ رسالته ، وأدعوك يا أبا بكر الى الله وحده لاشريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فأسلم وكفر بالاصنام وخلع الانداد وأقر بحق الاسلام ، ورجع أبو بكر ، وهو مؤمن مصدق(١٠)

وهذا الذى دعا رسول الله ﷺ واليه أبا بكر انما هو فى حقيقته الشهادتان .

٤ وفى قصة اسلام خالد بن سعيد رضى الله عنه ، ورد فى السيرة انه لقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد ، فقال : يامحمد ، إلام تدعو ؟ قال : أدعوك الى الله وحده ، لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايضر ولاينفع ، ولايدرى من عبده ممن لايعبده ، قال خالد : فانى اشهد ان لا إله الا الله واشهد انك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ باسلامه(١١) .

٥ — وفى قصة اسلام ابى ذر الغفارى أنه قال : كنت ربع الاسلام ، اسلم قبلى ثلاثة نفر ، وأنا الربع ، أتيت رسول الله ﷺ فقلت السلام عليك يارسول الله ، اشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار فى وجه رسول الله ﷺ(١٢) وهذا سياق مختصر وقد اخرج البخارى قصة اسلام ابى ذر كاملة ، وفيه أن النبى ﷺ قال لابى ذر بعد أن اسلم : ارجع الى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمرى فقال : والذى بعثك بالحق ، لأحرض بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد ان لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ثم قام القوم ، فضربوه حتى اضجعوه(١٣)

وفى هذا الخبر دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يدخلون الاسلام بالشهادتين

٦ — وفى قصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ، رضى الله عنه ، تحدثنا السيرة انه كان سيدا مطاعا شريفا فى دوس ، وكان قد قدم مكة ، فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ونهوه أن يجتمع به ، أو يسمع كلامه ، قال الطفيل : فو الله مازالوا بى ، حتى اجمعت الا اسمع منه شيئا ، ولا أكلمه حتى حشوت أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا (قطنا) فرقا من أن يبلغنى شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن اسمعه فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة قال : فقمت منه قريبا ، فأبى الله الا أن يسمعنى بعض قوله ، قال : فسمعت كلاما حسنا فقلت فى نفسى وا ثكل امى ، والله انى لرجل لبيب ، مايخفى على الحسن من القبيح ، فما

(١٠) انظر: السيرة النبوية لأبن كثير ج ١ ص ٤٣٣ ، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٤٤٤

(١١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٤٥

(١٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٤٧

(١٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٧ ص ١٢٩ ، حياة الصحابة ج ١ ص ٢٩٠ السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٥١ .
هذا وقد ورد فى بعض الروايات ان ابا ذر كان خامس من أسلم ، وان خالد بن سعيد كان الرابع انظر هذه الروايات فى السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣

يمنعنى أن اسمع من هذا الرجل مايقول : فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ الى بيته ، فأتبعته حتى اذا دخل بيته ، دخلت عليه فقلت يامحمد ، ان قومك قالوا لى كذا وكذا (للذى قالوا) فو الله مابرحوا يخوفوننى أمرك ، حتى سددت أذنى بكرسف لئلا اسمع قولك ، ثم أبى الله ان يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا فأعرض على امرك ، قال فعرض على رسول الله ﷺ الاسلام وتلا على القرآن ، فلا والله ماسمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا اعدل منه ، قال : فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ...)[(١٤)] وشهادة الحق هى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ كما جاءت مفسرة فى بعض المواضع

٧ - وفى قصة اسلام خالد بن الوليد ، تحكى لنا كتب السيرة انه قدم على رسول الله ﷺ فى المدينة ، وكان قد استكتبه أخوه الوليد بن الوليد يدعوه الى القدوم والاسلام ، قال خالد : فلقينى اخى ، فقال : اسرع ، فان رسول الله ﷺ قد اخبر بك فسر بقدومك ، وهو ينتظركم الان (وكان معه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة) فأسرعنا المشى ، فاطلعت عيه ، فما زال يتبسم الى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق : فقلت : أنى اشهد أن لا اله الا الله ، وأنك رسول الله ، فقال : تعال ، ثم قال رسول الله ﷺ (الحمد لله الذى هداك ، قد كنت ارى لك عقلا رجوت الا يسلمك الا الى الخير)[(١٥)]

فهذه الوقائع ، وتلك الاحاديث الصحيحة تدل مجتمعة على امر واحد اتفق عليه أهل السنة ، وهو أن الدخول فى دين الله لا يكون الا بالشهادتين ، وليس لاحد بعد هذه النصوص ان يحكم باسلام احد اذا لم يقر بهما بلسانه وقلبه ، كما أنه ليس لاحد بعدها ان يحكم بكفر احد اذا اقر بهما ، ولم يصدر منه ماينقضها او ينقض احداهما .

هذا ولا يكفى للدخول فى الاسلام مجرد احدى الشهادتين ، ولا بد منهما جميعا ، وقد يقال : قد ورد فى بعض الاحاديث المتقدمة ، وغيرها الاكتفاء بالشهادة الاولى (لا اله الا الله) والجواب : ان المقصود هو الشهادتان ، لانه جاء مفسرا فى الاحاديث الاخرى بهما جميعا[(١٧)]

ولا خلاف بين العلماء أن النطق بالشهادتين والتصديق بهما لايكون منجيا من الخلود فى النار ، وكافيا فى دخول الايمان والاسلام ، اذا كان مقترنا بما ينقضهما أو ينقض أحداهما : فلا يحكم بايمان انسان جاء يقول : اقر بأنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكن لا أعترف

(١٤) انظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨
(١٥) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥٢٠
(١٦) انظر مثلا : قصة اسلام أبى العاص بن الربيع فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، وقصة اسلام عمر بن الخطاب فى عيون الاثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ، وقصة اسلام حمزة فى السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٧٧

(١٧) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٩ ، ٢١٩

بوجوب الزكاة والحج ، أو بحرمة الزنا أو الربا أو القتل أو غير ذلك من أحكام الاسلام التى اخبر بها القرآن أو الرسول ﷺ وعلمت بالضرورة ، أو قال : أقر برسالة محمد ﷺ ولكنى اعتقد انها كانت خاصة بقوم أو بجيل معين أو قرن اقراره بالشهادتين بتفسير خاص لهما يؤول الى انكار توحيد الله فى بعض صفاته وأسمائه ، أو اقر بهما وهو ينكر بعض القرآن ولو آية أو كلمة أو حرفا ، فلا تنفعه الشهادتان وقد جاء معهما بما يكذب به القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام[(١٨)]

وكذلك من كان على ملة لاتكفى الشهادتان فى نقض مبدأ من مبادئها أو اكثر ، ولا بد فى حقه من أن يتبرأ من ذلك المبدأ بالاضافة الى الشهادتين ، فلو أن شخصا كان يعتقد بالتوحيد ، وبأن محمدا رسول الله ولكن الى قوم معينين أو زمن معين ، فان نطقه بالشهادتين لايكون كافيا لاعتباره مسلما : لان اعترافه برسالة محمد ﷺ لا ينفى ماكان مشهورا من اعتقاده باختصاصها بقوم أو بزمن ، فلا بد مع هذا من أن يقر بأن محمدا رسول الله الى الناس اجمعين[(٢٩)]

وقد ذكر بعض العلماء فى هذا الموضوع ،قاعدة عامة ، مفادها انه لايحكم باسلام الشخص الا اذا اقر بالشهادتين ، وكان هذا الاقرار كافيا فى نقض جميع معتقداته الباطلة التى اشتهر بها ، فان لم يكن كذلك كان لابد من النطق بها والتبرى من المعتقدات الباطلة التى لم يندرج نقضها تحت الشهادتين[(٢٠)]

ويجدر بالملاحظة فى هذا المقام أن كلمة (لا اله الا الله) تنقض جميع التصورات الباطلة عن الخالق ، وربوبيته ، والوهيته ، ذلك انها تقتضى كما علمت توحيد الله فى ذاته . وفى صفاته وأسمائه وأفعاله ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، فمن نطق بها كان متبرئا من جميع اعتقاداته الباطلة حول الخالق عز وجل ، وأما الشهادة الاخرى فانها تنقض معظم التصورات الباطلة حول مكانة نبينا محمد ﷺ وحول ما أخبر به من المغيبات جميعها[(٢١)] ، ولا تنقض بعضها ، كما تقدم من اعتقاد بعض الناس بخصوصية رسالته الى بعض الاقوام ، فلا بد فى حق هؤلاء من التصريح بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام

وهذا الذى تقدم خاص بمن كان كافرا ابتداء ، ولم يسبق له الدخول فى دين الله وأما المرتد عن الاسلام ، فانه لايحكم باسلامه الا اذا اقر بما كان قد جحده من أمور الايمان ، بالاضافة الى

(١٨) انظر : رسالة كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب من جملة رسائل مطبوعة بعنوان : المجموعة العلمية السعودية من دور علماء السلف الصالح ص ١٤١ ، ١٤٢

(١٩) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٩، وشرح السير الكبير ج ١ ص ١٥٠ والمغنى لابن قدامة ج ٩ ص ٢١ والمهذب ج ٢ ص ٢٢٣

(٢٠) انظر : شرح السير الكبير ج ١ ص ١٥٠

(٢١) الدين الخالص : ج ١ ص ١٤٨

الشهادتين : فان كان ارتداده بسبب جحوده الوحدانية أو الرسالة اكتفى بهما ، والا فلا بد منهما وأن يقر معهما بالامر الذى كان قد انكره(٢٢) فمن كان ينكر فرضية الزكاة مثلا ، أو حرمة الربا أو الزنا ، فانه لايعود اليه اسلامه حتى يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقر بفرضية أو حرمة ما أنكره .

ولعل من المفيد فى هذا المقام ان ننبه الى ماتقدم ذكره عند الكلام عن حقيقة الايمان من اتفاق العلماء على ان النطق بالشهادتين يكفى لاعتبار الناطق بهما مسلما ، من حيث الظاهر ، ومن أجل اجراء الاحكام الدنيوية عليه ، وأنه لايكفى من اجل الخلاص من الخلود فى النار ، حتى يقترن بالتصديق القلبى ، فمن أقر بهما مع ماتقدم من الشروط عومل بمقتضى الاسلام فى الحياة الدنيا ، وان كان منافقا فى حقيقة أمره ، لاننا مأمورون ببناء الاحكام فى هذه الحياة على الظاهر ، وترك السرائر لله تعالى ، فانه لايعلمها الا هو سبحانه ، وقد رأيت فيما تقدم انكار النبى ﷺ على اسامة بن زيد عندما ترك العمل بالظاهر ، وقتل من قال : الا اله الا الله ظنا منه انه لم يكن مخلصا فى قوله .

(٢٢) المغنى لابن قدامة ج ٩ ص ٢١ حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٣٩٧

متى يصير المؤمن كافـرا
(نواقـض الايمان)

عرفت فيما تقدم كيف يدخل الناس فى دين الله عز وجل ، والذين يلحون باب الايمان أنواع :
فمنهم من يثبته الله عليه ، فيموت مقرا مصدقا بأنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ومنهم من يرتد على عقبيه بسبب انكاره وجحوده .

والنوع الاول يتفاوت فيه المؤمنون : فمنهم المحسنون ، ومنهم المقتصدون ، ومنهم الظالمون لانفسهم ، ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب ، ومنهم يحاسب حسابا يسيرا ، ومنهم من يعذب فى النار ، حتى يمن الله عليه ، فيخلصه منها بفضله سبحانه .

وأما أسباب الخروج من الاسلام بعد الدخول فيه ، فنذكر لك أولا القاعدة الجامعة التى اتفق عليها أهل السنة ، ثم نشرع فى تفصيلها :

القاعدة :

فأما القاعدة العامة التى تحكم مايكفر من الاعتقادات والاقوال والافعال ، فنختار فى التعبير عنها ماقاله الامام الطحاوى رحمه الله تعالى فى العقيدة الطحاوية :(ونسمى اهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبى ﷺ معترفين ، وله بكل ما قاله واخبر مصدقين .. ولانكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله ، ولا نقول : لايضر مع الايمان ذنب لمن عمله ... ولا يخرج العبد من الايمان الا بجحود ما ادخله فيه)[1]

وبيان هذه القاعدة ان الشارع قد جعل للايمان والاسلام مدخلا وبابا يدخل منه وهو كما علمت **الاقرار والتصديق بالشهادتين ، فمن ولج الى الاسلام من هذا الباب ، فانه لايخرج الا ان يصدر عنه قول أو عمل او اعتقاد يناقض اقراره السابق وتصديقه بالشهادتين . وقد علمت فيما تقدم ان معنى شهادة (ان لا اله الا الله) توحيد الله فى ربوبيته ، واسمائه وصفاته ، وافعاله ، وتوحيده فى الوهيته ، وعدم توجه الانسان بالعبادة الى غيره سبحانه . وان معنى شهادة (محمد رسول الله) الاقرار والتصديق بكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الشرائع، وما اخبر به من أمور الغيب ، وانه من عند ربه عز وجل ، والاعتراف له بجميع اخلاق وصفات النبوة ، من صدق وامانه وفطانة وتبليغ وعصمة وغير ذلك .**

وبعد هذا فان من قال قولا او فعل فعلا يدل على انكار شىء مما تقدم يكون قد نقض اقراره السابق بالشهادتين ، وخرج من دين الله سبحانه ، فان كان قوله او فعله مطابقا لحقيقة نيته واعتقاده كان كافرا فى الدنيا والاخرة فيعامل بأحكام الكفار فى الدينا ، وتطبق عليه احكام الردة والتى من اهمها الاستتابة ، ثم القتل ان لم يتب. ويكون من المخلدين فى نار جهنم ان مات على هذه الحال .

(١) انظر العقيد الطحاوية ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٢

واما اذا اذنب المؤمن وقال قولا او فعل فعلا يعد فى الشرع معصية لله تعالى فلا يكون هذا بمجرده دليلا على خروجه من الايمان وان لم يتب عنه ، ان لم يكن فيه ما يدل على نقضه الشهادتين اواحداهما وهو فى مشيئة الله : ان شاء عذبه بذنبه ومعصيته ، وادخله النار ، ثم مآله الى الجنة ، لكثرة الاحاديث الصحيحة الدالة على انه يخرج من النار من مات وفى قلبه مثقال ذرة من ايمان . وان شاء سبحانه غفر له ، ولم يعذبه وادخله الجنة بغير عذاب فى النار ، فان الله سبحانه يقول (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[٢]

أنواع النواقض :

ومن هنا تعلم ان الامور التى تكون سببا فى الخروج من دين الله عز وجل تتنوع الى انواع جميعها يرجع الى تلك القاعدة العامة . وكل نوع يدخل فيه صور وتفصيلات كثيرة يصعب حصرها . ولكن تلك الانواع يمكن حصرها فى أربعة هى :

٢ – نوع يتضمن انكار الربوبية أو الطعن فيها .

٢ – نوع يتضمن الطعن فى اسماء الله وصفاته .

٢ – نوع يتضمن الطعن فى الالوهية .

٤ – نوع يتضمن انكار الرسالة او الطعن فى صاحبها عليه الصلاة والسلام .

فهذه اربعة انواع : ويدخل فى كل واحد منها صور من الافعال والاقوال والاعتقادات جميعها يعود على الشهادتين بالنقض ، وتخرج صاحبها من الاسلام ، والعياذ بالله تعالى، وفيما يلى تفصيل كل نوع من هذه الانواع ، وتوضحيه بالامثلة :

النوع الأول :

فقد علمت ان اول انواع التوحيد هو توحيد الله فى الربوبية والملك ، وهو الاعتقاد بان الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ورازقه ، والمتصرف فيه وحده ، بمشيئته وعلمه وحكمته سبحانه ، فكل قول أو اعتقاد فيه انكار لهذه الخصائص الربانية او بعضها ، كفر وردة ، فيدخل فى هذا انكار الخالق ، والقول بقدم شيء اى لم يخلقه الله سبحانه ، او اسناد الخلق او التدبير الى غير الله عز وجل ، كالصدفة ، والطبيعة ، ونحوهما ، او انكاره ملك الله لكل مخلوق ، او ادعاء الرزق من غير الله تعالى ، او اشراك غيره معه فى ذلك ، او ادعاء ان الله خلق الخلق واهملهم ، وانه لا يتصرف فيهم ، ولا يحفظهم ، ولا يدبر امرهم ، او نحو ذلك مما فيه مساس بخصائص الربوبية .

وكذلك يعد كفرا وردة ان يدعى شخص لنفسه شيئا من هذه الخصائص ، كأن يدعى لنفسه الربوبية ، كما قال فرعون : (انا ربكم الاعلى)[٣] او ان يدعى انه يملك او يرزق او يدبر شيئا من دون الله تعالى ، وكذلك يكفر من يصدقه فى هذه الدعوى .

(٢) النساء – الآية ١١٦

(٣) النازعات – الآية ٢٤

النوع الثانى :

وهو ما يتضمن الطعن فى النوع الثانى من انواع التوحيد ، وهو توحيد الله فيما يليق به من الاسماء والصفات .

فقد اثبت الله سبحانه لنفسه ، واثبت له رسوله ﷺ صفات واسماء ونفى سبحانه عن نفسه ، ونفى عنه رسوله صفات : فمن نفى أو انتقص شيئا مما اثبته الله لنفسه أو اثبته له رسوله ، فقد كفر ، وكذلك من أثبت لله شيئا نفاه عنه رسوله ، فكفر الصفات نوعات : كفر نفى وكفر اثبات ..

ويدخل فى الأول : نفى ايه صفة من صفات الله سبحانه ، كنفى علمه الكامل أو قدرته او حياته أو قيوميته او سمعه أو بصره أو استوائه على العرش أو كلامه أو رحمته أو جبروته أو كبريائه ، او غيرهما مما هو ثابت لله فى الكتاب أو السنة .

ويدخل فيه ايضا تأويل صفات الله واسمائه بما ينقصها او يحد من كمالها كمن يقر بعلم الله ، ولكنه يدعى انه العلم الاجمالى ، وان الله تعالى لا يعلم الجزئيات والتفصيلات ، او يشبه صفة من تلك الصفات بما عند المخلوقات ، فيدعى انه عز وجل يسمع كما يسمع الناس أو يبصر كبصرهم ، ونحو ذلك .

ويدخل فى النوع الثانى ، وهو كفر الاثبات ، اثبات أية صفة لله نفاها سبحانه عن نفسه ، أو نفاها عنه رسول الله ﷺ كا ثبات الولد له سبحانه . او البنات او الصاحبة أو السنة او النوم أو الغفلة أو الموت ، أو أى نقص من النواقص التى تعترى البشر .

وكذلك يكفر كل من يثبت شيئا من صفات الله لنفسه او لمخلوق ، ويكفر من يصدقه فى دعواه ، كقول من قال : انا اعلم كعلم الله ، او فلان عنده من الحكمة كما عند الله سبحانه وتعالى فيكفر هذا القائل ، ويكفر من يصدقه فى قوله ، لأن إثبات الشريك لله فى صفاته انتقاص منه جل وعلا ، وكل انتقاص منه او من صفاته كفر وردة .

النـــوع الثالـث :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن فى النوع الثالث من أنواع التوحيد ، وهو توحيد الالوهية ، وهو الشهادة بأن الله وحده هو المعبود بحق ، وان سواه لا يستحق اى شيء من العبادة ، فمن قال قولا أو فعل فعلا أو اعتقد اعتقادا يتضمن انكار هذا الحق لله سبحانة ، او انتقاص شيء منه ، أو اثباته ، او اثبات شيء منه لغير الله عز وجل ، فقد كفر وارتد عن دين الله

واكثر ارتداد الناس وكفرهم يرجع الى هذا النوع ، فان اكثرهم فى الماضى والحاضر يقرون بوجود الخالق سبحانه ، وكثير منهم يثبت له خصائص الربوبية وصفاتها من قدرة وتدبير ورزق وأحياء وإماته وغيرها .

وقد ذكر الله فى كتابة الكريم آن المشركين الذين بعث الله الرسل اليهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم قال تعالى (**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**)[٤] وقال ايضا (**ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم**)[٥]

وانما دخل الكفر على معظم الكافرين بسبب أنكارهم استحقاق البارى بأن يفرد فى توجيه العبادة اليه سواء أكان هذا الانكار بالقلب وهو الاعتقاد ، أو بما يدل عليه من القول أو الفعل ، وبسبب اقرارهم باستحقاق غيره لهذا الامر سواء أكان هذا الاقرار تصديقا بالقلب واعتقادا ، ام كان قولا أو فعلا يدل عليه .

والواقع ان هذا النوع من الكفر يدخل صاحبه فى النوعين السابقين من الكفر ، لان من يعترف لله سبحانه بأنه الخالق لكل شىء ، والمدبر لكل شىء ، ويعترف له بجميع صفات الجلال والكمال يقتضيه ذلك أن يعترف له وحده دون غيره بالالوهية المطلقة ، واستحقاق العبودية له دون سواه ، فان انكر ذلك وعبد غيره او عبد معه غيره ، فان اعترافه لله بالربوبية باطل ولا قيمة له

يقول الضنعانى (فمن شأن من أقر لله تعالى بتوحيد الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة ، فاذا لم يفعل ذلك فالاقرار الاول باطل)[٦]

ولذا كان توحيد الله فى عبادته موضوع الامتحان للعباد فى هذه الحياة الدنيا قال تعالى (**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**)[٧]

ومن هنا يتضح أن شهادة أن (لا اله الا الله) يناقضها أمران :

الاول : نفى استحقاق الخالق لان يعبد بأى نوع من انواع العبادة

الثانى: اثبات هذا الاستحقاق لاى مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى

فكل قول أو تصرف أو اعتقاد يتضمن احد هذين الامرين يدخل صاحبه فى الكفر والردة ، والعبادة التى لا تستحق الا لله هى الخضوع والتذلل والطاعة والانقياد ، ومما يدخل فيها الحب والخشية والاستغاثة والدعاء والتوكل والرجاء ، والركوع والسجود والصوم والذبح ، والطواف ، والخشوع وغيرها .

وبناء عليه فان من ينفى بقول أو اعتقاد أو عمل استحقاق الله لهذه المعانى يكفر ، فيكفر من قال أو اعتقد أن الله سبحانه لايخشى أو لايدعى أو لا يستعان به أو لايركع له أو يرجى ، أو يسخر ممن عبد الله أو استخف بمن يدعو الله أو يستعين به أو يرجوه بسبب دعائه لله واستعانته به ، أو الصلاة له أو الصوم ، أو الطواف أو أى فعل أو قول يعده الشرع عبادة ، لان استهزاءه واستخفافة لذلك أو لبعضه يدل بصورة قاطعة على عدم اعتقاده باستحقاق البارى لهذه العبادات ، كذلك يكفر من أنكر

(٤) الزخرف – الاية ٨٧

(٥) الزخرف – الاية ٩

(٦) تطهير الاعتقاد ص ٩

(٧) الذاريات ، ٥٦

ستحقاقه للطاعة وامتثال أمره واجتناب نهيه ، فان لله عز وجل شرعا ضمنه كتابه ، وأوصى به الى رسوله ﷺ فمن ادعى أن شيئا من هذا الشرع لا يستحق الامتثال والتطبيق أو لايصلح فى هذا الزمان أو نحو ذلك كفر بهذه الدعوى ، لان من خصائص الالوهية الامر والحكم والتشريع (**ان الحكم الا لله**)[٨] ومن خصائص العبودية الامتثال والطاعة

وفى مقابل ذلك يكفر كل من يثبت لغير الله شيئا من تلك العبادات ، فيكفر من يدعى استحقاقه لتلك العبادات ، أو أمر الناس بممارستها له ومن أجله ، ويكفر من يصدقه ويرضى بقوله أو يمارس بعض تلك العبادت له ، وكذلك من أحب أن يعبد بأصناف تلك العبادت وأن لم يأمر الناس بذلك ، كمن أحب أن يخشى أو ان يستعان به أو يتوكل عليه ، أو يرجى[٩] أو يسجد له أو يركع له أو يخشع الناس له أو غير ذلك من المعانى التى لايصح التوجه بها الا الى الخالق عز وجل .

ويكفر من ادعى ان له الحق فى تشريع مالم يأذن به الله ، بسبب ما أوتى من السلطان والحكم ، فيدعى أن له الحق فى تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، ومن ذلك وضع القوانين والاحكام التى تبيح الزنا والربا وكشف العورات أو تغيير ما جعل الله لها من العقوبات المحددة فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ أو تغيير المقادير الشرعية فى الزكاة والمواريث والكفارات والعبادات وغيرها مما قدره الشارع فى الكتاب والسنة ؟

ويدخل فى الكفر من يؤمن بهذه الطواغيت ويعترف لها بما ادعته من حقوق الالوهية ، فقد قال تعالى (**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**)[١٠] وقال ايضا (**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**)[١١] والعروة الوثقى هى شهادة أن لا اله الا الله فهذا هو معناها : أن تنفى جميع انواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبت جميع انواع العبادة لله وحده لاشريك له[١٢]

ومن هنا تعلم انه اذا قام حاكم ينتحل الحق فى اصدار تشريعات مناقضة لما هو ثابت فى الكتاب أو السنة ، يحلل به ماحرم الله ، أو يحرم ما أحله سبحانه ، كفر وارتد عن دين الله القويم ، لانه يعتقد بذلك انه يسعه الخروج عن شريعة الاسلام بما يشرع للناس ، ومن اعتقد ذلك كان من الكافرين[١٣]

(٨) يوسف - الآية ٤٠

(٩) والمقصود بذلك الخشية والاستعانة والرجاء فيما لايقدر عليه الا الله وهى خشية الغيب والاستعانة فى تحقيق الامور التى لا يقدر عليها الا الله ، وكذلك الرجاء فيما هو من اختصاص الله سبحانه . واما فيما يقدر عليه الناس ، فلا يكفر فيها العبد ، كمن خاف من السلطان وقد هدده بالسجن أو الموت أو استعان بصديق فى قضاء حاجة يقدر عليها، أو قال شخص لاخر : أرجوك أن تفعل كذا مما يقر عليه الناس ،فكل ذلك لا يدخل فى الكفر .

(١٠) النحل - الآية ٣٦

(١١) البقرة - الآية ٢٥٦

(١٢) رسالة محمد بن عبد الوهاب فى معنى الطاغوت - الجامع الفريد ص ٢٦٦

(١٣) نواقض الاسلام لمحمد بن عبد الوهاب - الجامع الفريد ص ٢٧٨

ولكن هذا الحكم لايدخل فيه اصدار التشريعات التى تتناولها نصوص الشارع أو لم تتعرض لها ، ولا الاحكام الاجتهادية التى اختلف العلماء فيها .

فمن سن قانونا يبيح بموجبه الزنا أو الربا أو اى شيء من المعاصى المتفق على حرمتها فى شرع الله فقد كفر ويكفر جميع من يسهم برضاه فى اصدار مثل هذا القانون ، ولكن لايكفر من سن قانونا ينظم فيه السير مثلا أو نحوه مما لم يتعرض له الشارع بالذكر ، ولا يكفر من سن قانونا ينظم فيه الاسعار ، ولا يقال ان التسعيرة حرام لان بعض العلماء لايجيزه ، ذلك انه امر اجتهادى ، وقد قال به بعض الفقهاء .

وتعلم ايضا انه يكفر من الناس من يعترف لهذه الطواغيت بهذه الحقوق ويرضى بها ، ويتحاكم اليها والى شرائعهم المناقضة للاسلام فى اصوله وما علم منه بالضرورة ، وقد قال تعالى (**الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنو بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا**)[١٤]

وقال تعالى (**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله**)[١٥]

النوع الرابع من النواقض :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن فى الرسالة أو فى صاحبها عليه افضل الصلوات واتم التسليم ، لان ذلك ينقض شهادة أن محمدا رسول الله فان هذه الشهادة تعنى : التصديق بكل ماثبت عن رسول الله ﷺ أنه حق وصدق وأن محمدا ﷺ أهله ربه وحلاه بجميع الصفات التى تمكنه من أداء الرسالة وتبليغها على أتم وجه وأكمله .

وبهذا تعلم أنه ينقض هذه الشهادة أحد امرين :

الاول : الطعن فى رسول الله ﷺ

الثانى : انكار بعض ما أخبر به رسول الله ﷺ مما يتناقض مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه الى عباده : فيكفر كل من طعن فى صدق الرسول أو أمانته ، أو عفته أو صلاح عقله ، ونحو ذلك ويكفر من سب الرسول ﷺ أو استهزأ أو استخف به أو بتصرف من تصرفاته الثابته .

ويدخل فى الامر الثانى انكار اى امر من الامور التى اخبر بها فيكفر من انكر ما اخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام وثبت عنه من البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وغيرها من المغيبات

ويكفر من انكر شيئا من القرآن مهما كان[١٦] لان جميع آيات القرآن اخبر عليه السلام انها من كلام الله تعالى فمن جحد شيئا من ذلك فقد كذب الرسول عليه الصلاة والسلام ويكفر من انكر حكما من الاحكام الثابتة فى القرآن أو السنة ، فيكفر كل من انكر فريضة الصلاة أو الزكاة أو حرمة الزنا أو السرقة ، أو ادعى زيادة ركعة فى احدى الصلوات ، أو جوازها بدون وضوء ونحو ذلك .

ولكن يعذر من جحد شيئا ليس مشتهرا فى الدين ولا يعلمه الا خاصة العلماء ، ولا يكفر ايضا من انكر حكما مجتهدا فيه وليس مجمعا عليه .

(١٤) النساء – الآية ٦٠

(١٥) الشورى – الآية ٢١

(١٦) انظر شرح ملا على القارى على الفقه الاكبر ص ١٦٧

يقول الامام النووى : (وكذلك الامر فى كل من انكر شيئا مما اجتمعت الامة عليه من أمور الدين اذا كان علمه منتشرا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الاحكام ، الا أن يكون حديث عهد بالاسلام ولا يعرف حدوده ، فانه اذا انكر شيئا منها جهلا به لم يكفر ... فأما ما كان الاجماع فيه معلوما من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة وعمتها وخالتها وأن القاتل عمدا لايرث وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الاحكام ، فان من أنكرها لايكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها فى العامة)[١٧]

ويكفر من جحد آية من القرآن أو انكر أمرا غيبيا أو كذب خبرا عما كان وما سيكون مما ورد به القرآن الكريم

ويكفر من جحد ارسال الرسل قبل محمد ﷺ أو جحد ما ذكر من قصصهم مع اقوامهم ، ومن انكر الكيفية التى ذكرها الله عن بداية الخلق أو ادعى كيفية اخرى تخالف ما ذكر فى آيات الكتاب الكريم ، ومن انكر الجن والشيطان أو أنكر الكرسى والعرش واللوح والقلم ومن أنكر وجود شخصية تاريخية اثبت القرآن وجودهاومن أنكر رسالة أو نبوة من ذكر القرآن انهم رسل وأنبياء ، وكذلك من طعن فى احدهم بما لايليق باختيار الله لهم أو انكر أن الله أرسل رسلا غيرهم لم يسمهم ، لانه صرح بذلك فى اكثر من موضع ، ويكفر كذلك من أنكر اعجاز القرآن الكريم لان هذا الاعجاز ثابت باخبار الله عز وجل وبالواقع ، وكذلك من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ أو صدق من يدعيها لان القرآن أخبر أن محمدا خاتم النبيين .

الرضى بالكفر وعدم الرضى بالاسلام كفـر :

ومن المفيد هنا ان نكرر ما ذكرناه سابقا ، وهو أن تلك الصور والتفصيلات مما يحبط الشهادتين ليست الا أمثلة وقد يوجد غيرها .

ونوجه الانتباه هنا الى امر قد يظن انه لايدخل فيما سبق ، مع انه فى حقيقته ينقض الشهادتين ويتضمن انكار التوحيد والرسالة ، الا وهو الرضى بالكفر وعدم الرضى بالاسلام[١٨] فان من قال : صدقت لمن انكر الشهادتين ومن قال : كذبت لمن نطق بهما ، لا يشك أحد فى كفره حتى وان كان القول الاول مجاملة للقائل ، وهنالك اساليب مختلفة من الاقوال والاعمال والاحوال لاتقل دلالتها فى عرف الشارع وفى عرف الناس ، وعرف اللغة عن قول : صدقت لمن كفر أو كذبت لمن أسلم ، فمن صدرت منه خرج من دين الاسلام ، من هذه الاساليب :

أولا : أساليب الرضى بالكفر :

١ - عدم تكفير الكافرين من ملحدين ومرتدين ومشركين :

أو الشك فى كفرهم أو تصحيح أى مذهب من مذاهبهم الكافرة[١٩]

(١٧) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ٢٠٥

(١٨) انظر شرح ملا على القارى على الفقة الاكبر ، ص ١٥٦

(١٩) نواقض الاسلام - محمد بن عبد الوهاب - انظر الجامع الفريد ص ٢٧٧

فمن علم من شخص أو جماعة أو مذهب أو حزب من الاحزاب أو طائفة من الطوائف أو أهل دين من الاديان كفرا واضحا ، فأعتقد عدم كفرهم أو ردتهم ، أو قال عن مذاهبهم أو بعضها انه صحيح ، فقد دخل معهم فى الكفر وأصبح مثلهم .

ولكن هذه القاعدة تحتاج الى بيان واحتياط عند تطبيقها :

ذلك انه يفترض من أجل الحكم بردة هذا الانسان انه يعلم حقيقة من يحكم باسلامهم وعدم كفرهم ، فان كان لايعرف حقيقتهم وما هم عليه من الكفر ، فلا يجوز الحكم عليه بالردة من أول الامر ، وانما يبين له بوسائل البيان السليمة ، التى لا يبقى بعدها شك فيما ينسب اليهم فان انكر بعد هذا كفرهم اعتبر حكمة هذا ردة وكفرا ، لان انكاره فى حقيقته تبن لمذهبهم واعتراف بصحته .

على انه ينبغى ان يلاحظ ان كفر بعض الطوائف أصبح مشتهرا ومعلوما بين الناس بالضرورة كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، فيكفر كل من ينكر كفر هؤلاء من أول الأمر .

وأما المذاهب والطوائف التى لايفترض اشتهارها بين الناس وعلم مبادئها الكافرة فينبغى أن يتريث فى تكفير من لايحكم بردة اتباعها ، حتى يبين له بما يقطع الشك ويعرف على مواقع الكفر فى هذه المذاهب والطوائف [٢٠] وخاصة ان بعض هذه الطوائف تنسب نفسها الى الاسلام ، وتتظاهر امام العامة انها لاتنكر شيئا من الاسلام ، وتخفى عنهم بادىء الامر ماينفرهم عنها ، مما فيه الانكار الصريح الواضح لمبادىء الاسلام أو بعضها .

كذلك يشترط لتكفير هذا الصنف من الناس ان يكون المحكوم عليهم قد كفروا بأمر متفق على الكفر بسببه ، فان كان مختلفا فيه بين العلماء المعتبرين ، بعضهم يعده من النواقض وبعضهم لايعده ، لم يجز تكفير من لم يكفرهم ، كتكفير الخوارج وبعض الفرق الاخرى التى لم يتفق على ردتها ، ويدخل فى هذا من لم يكفر تارك الصلاة عمدا ، الذى لم يجحد فرضيتها ، فاذا تحققت هذه الشروط ، وانكر المسلم كفر الكافرين وصحح ماهم عليه كان فى حقيقة الامر كالناطق المعتقد بالسبب الذى ادخلهم فى الكفر ، فيكون ناقضا بذلك ماسبق منه من الشهادتين ، ومن جهة اخرى يكون منكرا للنصوص والدلائل التى تكفر امثالهم فيكفر بسبب انكاره لهذه النصوص .

٢ – موالاة الكفار واظهار موافقتهم على دينهم :

فقد علمت ان من معنى شهادة أن لا اله الا الله نفى استحقاق العبادة لغير الله عز وجل ، فوق ما تدل عليه من اثبات هذا الاستحقاق لله وحده وهو مادل عليه قوله تعالى ايضا (**أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**) [٢١] فلا يكفى فى تحقيق معنى هذه الشهادة أن يعبد الانسان ربه ، حتى يتجنب عبادة غيره من جهة ،

(٢٠) مجموعة التوحيد ص ١٢٦

(٢١) النحل – الآية ٣٦

وينفى استحقاق أى مخلوق لاى من أنواع العبادة التى لاتصح الا لله من جهة اخرى ، وهذا امر متفق عليه ولا جدال ،فيه ومما لاجدال فيه ايضا ان من أظهر خصائص الكفار انهم لايعبدون الله حق عبادته ، أو انهم يشركون معه فى العبادة غيره ، زيادة على ماقد يكون منهم من انكار للرسالة أو طعن فى الرسول ﷺ أو غير ذلك من الامور المناقضة للاسلام والمضادة للشهادتين ، وهذا أمر متفق عليه ايضا .

وبناء على هاتين المسلمتين يتحدد الموقف الذى يتفق مع الشهادتين من اعداء الله واعداء دينه من الكفار والمشركين والمرتدين ، ويتبين الحد الذى يجب ان يقف عنده المسلم ولايتجاوزه من اجل الحفاظ على دينه وايمانه فى معاملتهم وبناء العلاقات معهم ، وهو الحد الذى لايفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم والرضى عن كفرهم ، فاذا تخطى المسلم هذا الحد ودخل فى طاعة الكفار واظهر الموافقة على دينهم الباطل ، واعانهم عليه بالنصرة والمال ، ووالاهم ، وقطع الموالاة مع المسلمين ، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين وضحى بالثانية من أجل الاولى فقد صار منهم وارتد عن دينه ، وكان كافرا من اشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ ولايستثنى من ذلك الا المكره ، وهو الذى يقع تحت سلطان الكفار ، فيأمرونه بطاعتهم فى باطلهم ، ويهددونه بالقتل أو يشروعون فى تعذيبه ، فيجوز له عندئذ فقط الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالايمان ، ومع أن هذا الامر يدخل فى معنى الشهادتين كما تقدم فانه ورد فى القرآن آيات كثيرة جدا تفرض على المؤمن قطع الولاء للكفار وتوجب عليه معاداتهم فى الدين ، ويدل كثير من هذه الآيات فى ظاهره على كفر وردة من لم يقم بهذه الفريضة ، فاذا رجعت الى المعنى الذى تدل عليه الشهادتان وجمعته مع هذا الظاهر الذى تدل عليه هذه النصوص عرفت انه على حقيقته ولا يجوز تأويله ، ونذكر لك فيما يلى بعض هذه النصوص ، لاجميعها فإنها كثيرة كثيرة لايزيد عليها الا ماجاء بخصوص التوحيد والامر بعبادة الله :

- قوله تعالى (**لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتقوا منهم تقاة**)[٢٢]

فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء واصحابا من دون المؤمنين واخبر ان من فعل ذلك فليس من الله فى شيء . قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) (ومعنى ذلك : لا تتخذوا ايها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم فانه من يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ، يعنى بذلك فقد برىء من الله وبرىء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله فى الكفر)[٢٣]

وأما قوله تعالى (الا ان تتقوا منهم تقاة) فهو كقوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) وهو أن يكون المسلم مقهورا معهم لايقدر على عداوتهم فيظهر لهم من المعاشرة والقلب مطمئن

(٢٢) ال عمران ٢٨
(٢٣) تفسير الطبرى ج٦ ص ٣١٣

بالايمان بالله ، وملء بالعداوة والبغضاء للكفر وأعداء الله قال ابن جرير (الا ان تتقوا وتضمروا لهم العداوة ولاتشايعوهم على ماهم عليه من الكفر ولاتعينوهم على مسلم بفعل)[٢٤]

وسيأتيك ان شاء الله تعالى بيان حد الاكراه المعتبر فى هذا المقام

ب -قوله تعالى (**يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما اسروا فى انفسهم نادمين**)[٢٥]

فنهى سبحانه وتعالى عن موالاة اليهود والنصارى ، وذكر ان من والاهم كان منهم ، فمن تولى اليهود فهو يهودى ومن تولى النصارى فهو نصرانى ، وكذلك من تولى أى كافر فهو مثله فى كفره ، لان المتولى متبن لما عليه ذلك الكافر وراض عنه ، فيكون مثله من حيث الكفر ، وقد روى ابن ابى حاتم عن محمد بن سيرين قال :(قال عبد الله بن عتبة : (ليتق احدكم ان يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لايشعر) قال فظننا يريد هذه الاية (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الى قوله تعالى (فانه منهم)

ثم تأمل عذر هؤلاء الذين كفروا بموالاتهم لليهود والنصارى ، والذى لم يقبله الله عز وجل منهم وهو خوفهم من أهل الكتاب وسلطانهم على مراكزهم وأموالهم ودنياهم ، فان تأملك هذا يعطيك ضوءاً واشارة الى معنى الاكراه ، ومايعتبر منه وما لايعتبر وهو ما وعدناك بالكلام عنه بعد الانتهاء من ذكر هذه الايات

ج -قوله تعالى (**ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ماقدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون**)[٢٦]

فبين سبحانه وتعالى ان الايمان بالله والنبى مرتبط بعدم ولاية الكفار ، فثبوت موالاتهم يوجب عدم الايمان ، لان عدم اللازم يقتضى عدم الملزوم ومن جهة اخرى فقد رتب الله تعالى على موالاة الكافرين سخطه والخلود فى العذاب ، واخبر أن موالاتهم لاتحصل من مؤمن ، فان اهل الايمان يعادونهم ولا يوالونهم .

ثم انظر كيف اعتبر سبحانه وتعالى عدم الموالاة للكفار داخلا فى معنى الشهادتين اللتين عبر عنهما بالايمان بالله والنبى وما انزل اليه ، ووجه الارتباط هو ماقدمناه لك فى مبدأ الكلام عن الموالاة للكفار والموافقة على دينهم .

(٢٤) تفسير الطبرى ج ٦ ص ٣١٣

(٢٥) المائدة – الايتان ٥١ ، ٥٢

(٢٦) المائدة – الايتان ٨٠ ، ٨١

د - قاله تعالى (**بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا**)[٢٧] فأخبر سبحانه انه لايوجد مؤمن يواد كافرا فمن واد كافرا فليس بمؤمن ، واذا كان الله قد نفى الايمان عمن يواد اباه واخاه وعشيرته ، اذا كانوا كفارا ، فمن واد الكفار الابعدين أولى بأن لايكون مؤمنا

و - قوله تعالى (**ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الامر والله يعلم اسرارهم ، فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم**)[٢٩]

فأخبر تعالى أن سبب ماجري عليهم من الردة والكفر هو قولهم للذين كفروا : سنطيعكم فى بعض الامر ، فلم ينفعهم ما علموه من الهدى والحق مع ماقالوه وما وعدوه للذين يكرهون الاسلام .

ز - قوله تعالى (**وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم اذا مثلهم**)[٣٠]

فذكر تعال انه نزل على المؤمنين فى الكتاب انهم اذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وان من جلس مع الكافرين بآيات الله المستهزئين بها فى حال كفرهم واستهزائهم فهو مثلهم ، هذا وهم فى بلد واحد فى أول الاسلام ، فكيف بمن كان فى سعة الاسلام وعزه وبلاده ، فدعا الكافرين بالله المستهزئين بها الى بلاده واتخذهم أولياء واصحابا وجلساء ومستشارين ، وسمع كفرهم واستهزائهم واقرهم ، وطرد علماء المسلمين وأبعدهم!!! فهذا اسلوب من أساليب الرضى بالكفر والكفار يبعد صاحبه عن الايمان ، ويدخله فى الكفر والعياذ بالله ، لان السكوت فى مجالس الكفر وما يكون فيها دليل كاف على الموافقة .

فيجب على المؤمن ان يحذر ذلك كما يحذر الكفر الصريح ، فيلزمه مفارقة هذه المجالس ، حتى ينجو من عذاب الله ، ولا يمنعه من ذلك خوف على مال أو مركز ، أو أى عرض من أعراض هذه الدنيا ، فان الله سبحانه أحق أن يخشاه .

معنى الموالاة للكفار :

تلك بعض النصوص التى يدل كل واحد منها على ردة من يوالون الكفار والمشركين فكيف اذا اجتمعت ، وجمعت معها غيرها مما لم يذكر ، وعرفت تناقض موالاة الكفار مع الشهادتين .

(٢٧) النساء - الايتان ١٣٨ - ١٣٩
(٢٨) المجادلة - الاية ٢٢
(٢٩) محمد - الايات ٢٥ - ٢٨
(٣٠) النساء - الاية ١٤٠

وليس لقائل ان يقول : ان معنى الموالاة غير محدد ، اذ يدخل فيه امور كثيرة قاصدا بذلك اننا لانستطيع ان نتخذه معيارا فى معرفة من يكفر ومن لايكفر ، لان الله سبحانه وتعالى لاينهى عن شىء غير محدد وغير معروف ، ولا يحكم بردة من دخل فى أمر غير واضح وغير متميز ، والا لكان امره ونهيه فى هذا الموضوع عبثا لايمكن تطبيقه ، وهذا قول لايقوله مؤمن بالله وصفاته .

فان قيل : فما معنى الموالاة ؟

فاعلم ان هذا اللفظ مشتق من الولاء ، وهو الدنو والتقرب والولاية ضد العداوة ، والولى عكس العدو ، والمؤمنون أولياء الرحمن ، والكافرون أولياء الطاغوت والشيطان ، لقرب الفريق الأول من الله بطاعته وعبادته ، وقرب الفريق الثانى من الشيطان بطاعة أمره وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفته .

ومن هنا يتبين أن موالاة الكفار تعنى التقرب اليهم ، واظهار الود لهم ، بالاقوال والافعال والنوايا ، وقد اشارت النصوص الى كثير من هذه الامور التى تدخل الانسان فى الولاء للكفار ، من ذلك :

اتباع اهوائهم وقد نهى الله من اتباعها قال تعالى (**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير**)(٣١)

وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به قال تعالى (**يا أيها آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين**)(٣٢) وقال سبحانه (**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**)(٣٣) وقال ايضا(**وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعتموهم انكم لمشركون**)(٣٤)

والركون اليهم ، قال تعالى (**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**)(٣٥)

ومداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين ، قال عز وجل (**ودوا لو تدهن فيدهنون**)(٣٦)

واظهار الود لهم ، قال تعالى (**لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**)(٣٧)

ويدخل فى جملة ماتقدم اكرام الكفار وتقريبهم ، وخاصة من الحكام ، ومشاورتهم فى الامور الهامة ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين . ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم والتشبه بأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم ، واخذ الامة بوسائل الترغيب والترهيب والاعلام وغيرها للتشبه بهم وتقليدهم فى شئون الحياة ، واستعارة قوانينهم ومناهجهم فى حكم الامة وتربية ابنائها .

(٣١) البقرة - الاية ١٢٠
(٣٢) ال عمران - الاية ١٤٩
(٣٣) الكهف - الاية ٢٨
(٣٤) الانعام - الاية ١٢١
(٣٥) هود - الاية ١١٣
(٣٦) القلم - الاية ٩
(٣٧) المجادلة - الاية ٢٢

ويدخل فيه معاونتهم ، والتآمر والتخطيط معهم ، وتنفيذ مخططاتهم ، والدخول فى تنظيماتهم واحلافهم ، والتجسس من اجلهم ، ونقل عورات المسلمين واسرار الامة اليهم والقتال فى صفهم .

ويدخل فيه استئمانهم ، وقد خونهم الله عز وجل وتوليتهم المراكز الهامة ، وتنصيبهم فى أهم الوظائف وأخطرها ، وخاصة فى الجيش والمرافق العامة

كما يدخل فيه تحسين افكارهم ومناهجهم وقيمهم وتصوراتهم ، والدعوة اليها ، وتفضيل علمائهم على علماء المسلمين .

فمن اجتمعت عندهم هذه الامور ، أو قدر منها ، وكان ذلك له خلقا وعادة ، فقد أقام الدليل على انه راض بكفر الكافرين ، فيكون مثلهم ، بل منهم ، ولا ينجيه من الكفر الا ايمان جديد ، واقلاع عن موالاة الكفار .

مايقبل ومالا يقبل من الاعذار فى هذا المقام :

هذا وقد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على ملكهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التى لا تصح ، ولا يعتبرها الله سبحانه ، ولايعذرهم من اجلها ، وجميعها من تزيين الشيطان وتسويله ، وحب الدنيا والطمع فى زينتها .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل عذرا لاحد فى اظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم ، الا عذرا واحدا ، هو الاكراه ، حيث قال عز وجل (**من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدى القوم الكافرين**)[٣٨] وقال ايضا :(**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا ان تتقوا منهم تقاة**)[٣٩]

على ان الاكراه لاينفع احدا فيما يتعلق بالرضى القلبى والميل الباطنى الى الكفار فهذا غير مأذون فيه على اية حال ، لقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) ولان الاكراه لا سلطان له على القلوب ولكن محل العذر هو محل تأثير الاكراه وهو النطق باللسان وفعل الجوارح ، فمن والى الكفار بقلبه وميله اليهم فهو كافر على كل حال ، فان اظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل فى الدنيا بكفره ، وفى الاخرة يخلد فى النار ، وان لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالاسلام ظاهرا عصم ماله ودمه ، وهو منافق فى الدرك الاسفل من النار

حـــدود الاكراه المعتبر :

ولكن ماحدود الاكراه المقصود فى هذا المقام ؟

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى (تأملت المذاهب فوجدت الاكراه يختلف باختلاف المكره ، فليس المعتبر فى كلمات الكفر كالاكراه المعتبر فى الهبة ونحوها ، فان احمد قد نص فى غير

(٣٨) النحل – الايتان ١٠٦ ، ١٠٧

(٣٩) ال عمران – الاية ٣٨

موضع على ان الاكراه على الكفر لايكون الا بالتعذيب من ضرب أو قيد ، ولا يكون الكلام اكراها ، وقد نص على ان المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه فلها ان ترجع على انها لا تهب له الا اذا خافت ان يطلقها أو يسيء عشرتها ، فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة اكراها ، ومثل هذا لا يكون اكراها على الكفر ، فان الاسير اذا خشي الكفار ان لايزوجوه أو يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر)(٤٠)

وهكذا يرى الامام احمد بن حنبل ، ويوافقه ابن تيمية رحمهما الله تعالى ، ان الاكراه في مقام التظاهر بالكفر ، سواء كان نطقا بكلامه او موالاة للكفار لا يعتبر الا اذا وصل الى حد التعذيب من ضرب أو قتل ونحو ذلك ، وأما ما دونه من طمع في رياسة او في مركز يعين الكفار على توليه او بقائه ، او خوف على مال او عيال او وطن او غير ذلك فانه لاينفع ولا يقبل منه .

وهذا الذي ذهبا اليه يدل عليه النصوص السابقة التي نهت عن مولاة الكفار واعتبرته سببا من أسباب الكفر والردة ، ففي الآية التالية للآية التي عذر فيها الله سبحانه وتعالى المكره فيما يتفلظ به من كلام الكفر ، قرر سبحانه ان حب الدنيا والعمل من اجل حظوظها لا ينفع صاحبه ، ولا يشفع له عند الله تعالى ان صدر عنه ما يستلزم الكفر ، فقال سبحانه وتعالى (**ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة وان الله لايهدى القوم الكافرين**)(٤١)

وفي آية اخرى توعد سبحانه وتعالى من اتخذ اباه أو اخاه وليا من دون الله فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفرعلى الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون)(٤٢)

فانظر كيف نفي ان تكون صلة القرابة ، مهما كانت قوية ، عذرا في اظهار الموالاة للكفار ، فان لم يكن حب الاب والاخ والولد عذرا في ولاية الكفار ، فكيف يمكن ان يكون كذلك حب الزعامة والاموال وزينة الحياة الدنيا ، بل ان الله عز وجل رفض الاعتذار بثمانية اعذار كثيرا مايعتذر الناس بها في ترك مايحب الله ورسوله وهو قوله تعالى (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين)(٤٣)

ولا شك ان موالاة الكفار فيها اظهار لحبهم ومودتهم ، وتفضيلهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله ، ومثل هذا قوله تعالى (**لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم**)(٤٤) فلا عذر لانسان في موالاة الكفار خوفا على الاموال والابناء والازواج والعشائر ونحو ذلك مما يتعذر به كثير من الناس

(٤٠) انظر مجموعة التوحيد ص ٢٩٧
(٤١) النحل – الآية ١٠٧
(٤٢) التوبة – الآية ٢٣
(٤٣) التوبة – الآية ٢٤
(٤٤) المجادلة – الآية ٢٢

وانظر كيف رفض البارى عز وجل قبول عذر اناس كانوا يتولون اليهود والنصارى عندما قالوا : نخشى ان تصيبا دائرة ، فقال سبحانه (يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة)(٤٥)

وهذه هى حال كثير من المرتدين فى الفتنة فى هذه الايام ، وما أشبه اعذار كفار الامس باعذار كفار اليوم! فتجدهم يعتذرون بنفس العذر ، ويخافون الدائرة التى خاف منها اولئك القوم ، فيقولون لك ، كيف لنا ان لانوالى فلانا أو تلك الطائفة وكيف لنا ان لانظهر المودة لها ونجاملها ، ولو كان على حساب الدين والعقيدة ، وهى تتمتع بالعطف والحماية من دول عظمى لانقدر الوقوف امامها ، أو يقولون لك : كيف نتجاهل رغبة تلك الدولة العظيمة ، ولو كانت رغبتها قتل المسلمين وتشريدهم وافساد اخلاقهم ، وابعادهم عن دينهم ، والتنازل عن أراضيهم ، كيف لنا ذلك ؟

نعلم انه لايستطيع امثالنا الثبات لحظة فى مكانه الذى هو فيه ان لم ننفذ لها رغباتها ، اننا لانستطيع التضحية بمراكزنا ومكاسبنا!! وهذا لعمر الحق هو الخوف الذى لايجوز ان يكون الا لله عز وجل ، وقد علمت انه يكفر من يجعله لغير الله ، فهؤلاء قد كفروا مرتين : لموالاتهم للكفار ، ولعبادتهم اياهم بخشيتهم لهم خشية لا تصح الا لله عز وجل .

فهذه النصوص وغيرها تدلك على ان الله عز وجل لايعذر احدا فى موالاة الكفار إلا من كان حاله كحال عمار بن ياسر ، رضى الله عن آل ياسر ، الذى نزل فى حقه تفضل الله تعالى على العباد بالاعذار بالاكراه ، وهو قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

وهذا يقتضى ان يكون المكره تحت سلطان الكفار ، ويقدرون عليه ، وتكون الرخصة عندئذ فى وقت الاكراه ، ولا يجوز اللجوء اليه بعد زوال التعذيب ، فان عادوا الى تعذيبه كان له العودة الى الرخصة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ انه قال لعمار بعد ماعرف حاله (فان عادوا فعد)

قال ابن قدامه (فاذا ثبت – اى المكره –انه لم يكفر ، فمتى زال عنه الاكراه ، امر باظهار اسلامه ، فان اظهره فهو باق على اسلامه ، وان اظهر الكفر حكم انه كفر من حين نطق به ، لاننا تبينا بذلك انه كان منشرح الصدر بالكفر من حين نطق به مختارا له)(٤٦) على ان الافضل لمن اكره على كلمة الكفر ، أو على موالاة الكفار والموافقة على دينهم ان يصبر ولا يمتثل لهم ، حتى ولو اتى ذلك على نفسه لما روى خباب عن رسول الله ﷺ انه قال (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه مايصده ذلك عن دينه)(٤٧)

(٤٥) المائدة – الآيتان ٥١ ، ٥٢

(٤٦) المغنى : ج ٩ ص ٢٤

(٤٧) رواه البخارى – انظر رياض الصالحين ص ٣٢

ويشهد لهذا ايضا مارود فى الصحيح من قصة اصحاب الاخدود وما فعلوه بالمؤمنين ، فصبر المؤمنون على التحريق فى سبيل الله ، ولم يصدهم الاخدود المؤجج بالنيران عن دينهم القويم ، فثبتوا عليه وضحوا بأنفسهم فى سبيله وهو تفسير قوله تعالى (**قتل أصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود**)(٤٨)

وقال الامام القرطبى رحمه الله (اجمع العلماء على ان من اكره على الكفر فاختار القتل انه اعظم اجرا عند الله ممن اختار الرخصة)(٤٩)

بعض مظاهر عدم الرضى بالاسلام :

ونذكر لك ايضا مظهرين من مظاهر كره الاسلام التى تؤول الى الردة والكفر وان شهد الشهادتين وسمى نفسه مسلما ، وهما :

الاول : الاستهزاء بشيء معلوم من دين الاسلام ، ويدخل فى ذلك الاستهزاء بالله ورسوله وكتابه أو بالمؤمنين بسبب ايمانهم ونحو ذلك ، واصل هذا قوله تعالى (**قل أبالله بالله ورسوله كنتم تستهزؤون ، لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين**)(٥٠)

ومناسبة نزول هذه الآيات انه قال رجل فى غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ارغب بطونا ، ولا اكذب السنا ولا اجبن عند اللقاء – يعنى رسول الله ﷺ واصحابه القراء – فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لاخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف الى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل الى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يارسول الله انما كنا نخوض ونعلب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق قال ابن عمر : كأنى انظر اليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وان الحجارة تنكب رجليه وهو يقول : انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون) ما يلتفت اليه ، وما يزيد عليه(٥١)

وصور الاستهزاء كثيرة جدا لاتدخل تحت حصر ويجمعها انها جميعا تدل على الاستخفاف بالدين وعدم الرضى عنه او عن شيء منه ، وقد يكون كلاميا ، وقد يكون فعليا بالحركة والاشارة كالرف بالعين ، واخراج اللسان ، ومد الشفة والغمزة باليد ، عند تلاوة كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ او عند ذكر عقيدة الاسلام او شيء من مبادئه المعلومة بالضرورة ونحو ذلك

الثانى : ظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله أو رسوله أو تلاوة كتابه ، أو ذكر شيء من امور الدين المعروفة ، أو الدعوة اليه فقد قال عز وجل (**واذا تتلى عليهم آياتنا قل أفأنبئكم من بشر من ذلك ، النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**)(٥٢)

(واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفتنبكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير)

وقال أيضا(**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**)(٥٣)

(٤٨) البروج : ٤ –٧ وقصة اصحاب الاخدود ، اخرجها بتمامها مسلم فى صحيحه .انظر هذه القصه بكاملها فى رياض الصالحين ص ٢٧ وما بعدها.

(٤٩) تفسير القرطبى : ج ١ ص ١٨٨

(٥٠) التوبة – ٦٥ ، ٦٦

(٥١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٦٧

(٥٢) الحج – الاية ٧٢

(٥٣) محمد – الاية ٩

نصوص بعض العلماء فيما يكون سببا للردة :

ولمن المفيد فى ختام هذا البحث ان نذكر لك بعض النصوص لبعض العلماء مما نصوا عليه من الافعال والاقوال، والاعتقادات التى تؤول بصاحبها الى الخروج من دين الاسلام ليكون الاخ القارىء على بينة منها ، فلا يقع فيها ، وليحذر اخوانه منها ومن الوقوع فيها ، فان معظم ماذكروه متفق عليه ، وما اختلف فيه لايقل عن ان يكون كبيرة من الكبائر :

١ - ففى كتاب الزواجر عن ارتكاب الكبائر قال الامام ابن حجر الهيثمى : (فمن أنواع الكفر والشرك أن يعزم الانسان عليه فى زمن بعيد أو قريب ، أو يعلقه باللسان أو القلب على شىء ، ولو كان محالا عقليا فيما يظهر. فيكفر حالا ، أو عناد أو استهزاء كأن يعتقد قدم العالم ، أو نفى ماهو ثابت لله بالاجماع المعلوم من الدين بالضرورة كأنكار علم الله أو قدرته ، أو كونه يعلم الجزئيات، أو اثبات ما هو منفى عنه سبحانه كاللون)

ثم شرع فى بيان تفصيلات كثيرة لهذه القاعدة التى ذكرها فقال (وفى معنى ذلك كل من فعل فعلا أجمع المسلمون على انه لايصدر الا من كافر وان كان مصرحا بالاسلام ، كالمشى الى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها ، أو يلقى ورقة فيها شىء من القرآن ، او فيها اسم الله تعالى فى نجاسة – أو يشك فى نبوة نبى اجمع عليها ، او فى انزال كتاب كذلك كالتوراة أو الانجيل أو زبور داود أو صحف ابراهيم ﷺ أو فى آية من القرآن مجمع عليها ، أو فى تكفير كل قائل قولا يتوصل به الى تضليل الامة أو تكفير الصحابة أو فى مكة او الكعبة أو المسجد الحرام أو فى صفة الحاج ، أو هيئته المعروفة ، وكذا الصوم والصلاة أو استحل محرما كذلك ، كالصلاة بغير وضوء أو استحل ايذاء مسلم أو كافر ذمى بلا مسوغ شرعى بالنسبة لاعتقاده ، أو حرم حلالا كالبيع والنكاح أو يقول عن نبينا ﷺ : كان اسود أو توفى قبل ان يلتحى ، او ليس بقرشى أو عربى او انسى ، لان وصفه بغير صفته تكذيب له ، ويؤخذ منه ان كل صفة اجمعوا على ثبوتها له يكون انكارها كفرا ، كما لوجوز بعثة نبى بعده ، وقال : لا ادرى اهو الذى بعث بمكة .ومات بالمدينة أو غيره ، أو قال ان النبوة مكتسبة ، او ان رتبتها يوصل اليها بصفاء القلب ، أو يقول : الولى افضل من النبى وانه يوحى اليه وان لم يدع نبوة ، او يدخل الجنة قبل موته ، او يعيب نبينا محمدا ﷺ ومثله غيره من الانبياء بل والملائكة ، او يلعنه او يسبه ، او يستخف او يستهزىء به أو يلحق به نقصا فى نفسه أو نسبه أو دينه أو فعله أو يعرض بذلك ، أو يسبه بشىء عن طريق الازراء او التصغير لشأنه ، أو الغض منه ، أو تمنى له معرة ، أو نسب اليه مالا يليق بمنصبه عن طريق الذم ، أو عبث فى جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور ، او عير بشىء مما جرى من البلاء والمحنة عليه ، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه ، فيكفر بواحد مما ذكر اجماعا ، فيقتل ولا تقبل توبته عند اكثر العلماء وقد قتل خالد بن الوليد رضى الله عنه من قال له (عند صاحبكم) وعد هذه الكلمة تنقيصا له ﷺ

ثم قال ابن حجر (أو يرضى بالكفر ولو ضمنا كأن يشير على كافر بأن لايسلم وان لم

يستشره ... أو سؤال الكفر لغيره لانه رضى به ، او يقول لمسلم : ياكافر بلا تأويل لانه سمى الاسلام كفرا ، أو يسخر باسم الله تعالى او نبيه بأن يصغره ، او يسخر بأمر الله او نبيه أو وعده أو وعيده كأن يقول : لو أمرنى بكذا لم افعله ، أو لو جعل القبلة هنا ماصليت اليها ، أو لو اعطانى الجنة مادخلتها استخفافا أو عنادا ، او يقول لو اخذنى بترك الصلاة مع مافى من الشدة والمرض ظلمنى ، او قال ظالم لمظلومه القائل (هذا الظلم بتقدير الله) انا افعل بغير تقدير الله أو قال : لو شهد عندى ملك أو نبى ماصدقته أو لو كان فلانا نبيا ماآمنت به ، أو قال : ان كان ماقاله النبى صدقا نجونا ... أو قيل له : قلم أظافرك فانه سنة فقال لا أفعل وان كان سنة استهزاء ، او قال : لاحول ولا قوة الا بالله لا تغنى من جوع ، ومثلها فى ذلك سائر الاذكار كما هو ظاهر ، او قال المؤذن يكذب ، أو شبه صوته بناقوس الكفر ، او استخف بالآذان ، أو سمى الله على محرم استهزاء ، او قال : لا أخاف القيامة استهزاء ، او قال عن الله : انه لايتبع السارق ناسبا العجز اليه ... أو نسب الله تعالى الى جور فى التحريم ، أو لبس زى كافر ميلا الى دينه أو قال : اليهود خير من المسلمين ... أو قيل له : ما الايمان ، فقال : لا ادرى استخفافا أو انكر صحبة ابى بكر او قذف عائشة رضى الله عنها ، لانه مكذب للقرآن بخلاف غيرهما أو قال : أنا الله ولو مازحا ، او قال لا أدرى حقه جحدا للواجبات ... أو قال استخفافا : شبعت من القرآن أو الصلاة أو الذكر أو نحو ذلك ، أو قال : أى شيء المحشر أو جهنم ؟ أو قال : لعنة الله على كل عالم اذا قصد الاستغراق لشموله الانبياء والملائكة أو قال : أى شيء هذا الشرع وقصد الاستخفاف ، أو قال : اذا ظهرت الربوبية زالت العبودية وعنى بذلك رفع الاحكام ، أو انه فنى من صفاته الناسوتية الى اللاهوتيه ، او انه يرى الله عيانا فى الدنيا أو بكلمة شفاها ، أو انه يحل فى صورة حسنة ، أو انه اسقط عنه التكليف ، أو قال : العبد يصل الى الله تعالى من غير طريق العبودية أو قال : الروح من نور الله فاذا اتصل النور بالنور اتحد)[٥٤]

وأنقل هنا كلاما لابن تيمية ، رحمه الله تعالى ، حول معنى قوله تعالى (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**)[٥٥] حيث قال (ولا ريب ان من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فانه ما من امة الا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير منهم من المنتسبين الى الاسلام ، يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية ، ويرون ان هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فان كثيرا من الناس أسلموا ، ولكن لايحكمون الا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء اذا عرفوا انه لايجوز لهم الحكم الا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا ان يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار)[٥٦]

(٥٤) عن كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكى ج ١ ص ٢٨ – ٣٠ ، وانظر ايضا كلاما قريبا من هذا فى مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٣٥ ، ١٣٦، وحاشية الباجورى ج ٢ ص ٢٥٧

(٥٥) المائدة – الآية ٤٤

(٥٦) من منهاج السنة النبوية ـ انظر : مجموعة التوحيد ص ١٩٣

وفى نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية : (وهنا أمر يجب ان يتفطن له وهو ان الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وذلك بحسب حال الحاكم ، فانه ان اعتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب ، وانه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله ، فهذا كفر أكبر)[٥٧]

ويقول الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى (**أفحكم الجاهلية يبغون**)[٥٨] (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر وعدل الى ماسواه من الآراء والاهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال ، بلا مستند من شريعة الله ، كما كان اهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذه عن ملكهم جنكزخان الذى وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من احكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الاحكام اخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع الى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير)[٥٩]

ويقول الشيخ احمد شاكر تعليقا على كلام ابن كثير السابق : (أقول : افيجوز – مع هذا – فى شرع الله ان يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات اوربة الوثنية الملحدة ؟ بل تشريع تدخله الاهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لايبالى واضعه اوافق شرعة الاسلام أم خالفها ؟

ان المسلمن لم يبالوا بهذا قط – فيما نعلم من تاريخهم - الا فى ذلك العهد عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فانهم لم يخضعوا له ، بل غلب الاسلام التتار ، ثم مزجهم ، فأدخلهم فى شرعته ، وزال أثر ما صنعوا ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وبما ان هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم اذ ذاك ، لم يندمج فيه احد من افراد الامم الاسلامية ، المحكومة ، ولم يتعلموه ، ولم يعلموه ابناءهم ، فما اسرع ما زال اثره

أفرأيتم بهذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير – فى القرن الثامن – لذاك القانون الوضعى ، الذى وضعه عدو الاسلام جنكزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر ، فى القرن الرابع عشر ؟ الا فى فرق واحد ، أشرنا اليه آنفا : ان ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام ، أتى عليها الزمن سريعا ، فاندمجت فى الامة الاسلامية وزال اثر ماصنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا ، وأشد ظلما وظلاما منهم ، لان اكثر الامم الاسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفة للشريعة ، والتى هى اشبه شيء بذاك (الياسق) الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر ، هذه القوانين التى يصنعها ناس ينتسبون للاسلام ، ثم يتعلمها

(٥٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٣ ، ٣٦٤
(٥٨) المائدة – الآية ٥٠
(٥٩) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٧

ابناء المسلمين ، ويفخرون بذلك آباء وأبناء ، ثم يجعلون مرد أمرهم الى معتنقى هذا (الياسق العصرى) ويحقرون من يخالفهم فى ذلك ، ويسمون من يدعوهم الى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيا) و (جامدا) الى مثل ذلك من الالفاظ البذيئة .

بل انهم ادخلوا ايديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الاسلامى ، يريدون تحويله الى (ياسقهم) الجديد بالهوينا واللين تارة ، وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت ايديهم من السلطات تارات ، ويصرحون ، ولا يستحيون ، بأنهم يعملون على فصل الدولة من الدين! أفيجوز اذن – مع هذا – لأحد من المسلمين ان يعتنق هذا الدين الجديد أعنى التشريع الجديد ؟

أو يجوز لرجل مسلم ان يلى القضاء فى ظل هذا (الياسق العصرى) وان يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه ، ويؤمن به جملة وتفصيلا ، ويؤمن بأن هذا القرآن انزله الله على رسوله كتابا محكما لايأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال – ما أظنه يستطيع الا ان يجزم غير متردد ولا متأول ، بأن ولاية القضاء فى هذه الحال باطلة بطلانا أصليا ، لا يلحقه التصحيح ولا الاجازة ؟

ان الامر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هى كفر بواح ، لاخفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لاحد ممن ينتسب للاسلام – كائنا من كان – فى العمل بها ، أو الخضوع لها أو اقرارها ، فليحذر امرؤ لنفسه ، وكل امرىء حسيب نفسه)[٦٠]

٣ –ويقول الشيخ احمد شاكر ايضا فيمن ينكرون حد السرقة : (هذا حكم الله فى السارق والسارقة ، قاطع صريح اللفظ والمعنى ، لا يحتمل اى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة ، وهذا حكم رسول الله تنفيذا لحكم الله وطاعة امره ، فى الرجال والنساء ، قطع اليد ، لا شك فيه ، حتى ليقول ﷺ « لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

فانظروا الى ما فعل بنا اعداؤنا المبشرين المستعمرون ؟ لعبوا بديننا وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة ، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله ، ثم ربوا فينا ناسا ينتسبون الينا ، اشربوهم فى قلوبهم بغض هذا الحكم ، ووضعوا على السنتهم كلمة الكفر : ان هذا حكم قاس لايناسب هذا العصر الماجن عصر المدنية المتهتكة ، وجعلوا هذا الحكم موضع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا ان امتلأت السجون – فى بلادنا وحدها – بمئات الالوف من اللصوص ، بما وضعوا فى القوانين من عقوبات للسرقة ، ليست برادعة ، ولن تكون ابدا رادعة ولن تكون ابدا علاجا لهذا الداء المستشرى

ثم أدخلوا فى عقول الطبقة المثقفة ، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية مايسمونه (علم النفس) وهو ليس بعلم ولاشبيه به ، بل هو أهواء متناقضة متباينة ، لكل امام من أئمة الكفر فى هذا العلم رأى ينقض رأى مخالفه ، ثم جاءوا فى التطبيق يلتمسون الاعذار من علم النفس لكل لص بحسبه ،

(٦٠) عمدة التفسير – اختيار وتحقيق احمد محمد شاكر ، طبعة دار المعارف سنة ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م ج ٤ ص ١٧١ ، ١٧٢

ثم زاد الامر شرا ان يكتب اللصوص انفسهم كلاما يلتمسون به الاعذار لجرمهم ، وقام المدافعون عنهم المقامات التى توردهم النار : يعلمون ان الجريمة ثابتة ، فلا يحاولون انكارها ، بل يحاولون التهوين من شأنها ، بدارسة نفسية المجرم وظروفه !!

ولقد جادلت منهم رجالا كثيرا من أساطينهم ، فليس عندهم الا ان حكم القرآن فى هذا لايناسب العصر !! وان المجرم ان هو الا مريض يجب علاجه لا عقابه ، ثم ينسون قول الله سبحانه فى هذا الحكم (**جزاء بما كسبا نكالا من الله**)[٦١] فالله سبحانه وهو خالق الخلق ، وهو اعلم بهم ، وهو العزيز الحكيم ، يجعل هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين ، نصا قاطعا صريحا ، فأين يذهب هؤلاء الناس ؟

المسألة عندنا — نحن المسلمين — هى من صميم العقيدة ، ومن صميم الايمان ، فهؤلاء المنتسبون الى الاسلام ، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه ، سنسألهم : أتؤمنون بالله ، وبأنه خلق هذا الخلق ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأنه يعلم ما كان ومايكون ، وبأنه اعلم بخلقه من أنفسهم ، وبما يصلحهم وبما يضرهم ؟ فسيقولون نعم . أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمدا بالهدى ودين الحق ، وانزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس واصلاحا لهم فى دينهم ودنياهم ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها (**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**)[٦٢] من القرآن ؟ فسيقولون : نعم . اذن فأنى تصرفون ؟ وعلى أى شرع تقومون ؟ أما من أجاب — ممن ينتسب للاسلام — على اى سؤال من هذه السؤالات بأن : لا ، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره ، وقد ايقن كل مسلم من عالم أو جاهل ، مثقف أو امى ، ان من يقول فى شىء من هذا : لا فقد خرج من الاسلام وتردى فى حمأة الردة ، وأما من عدا المسلمين ومن عدا المنتسبين للاسلام ، فلن نجادلهم فى هذا ، ولن نسايرهم فى الحديث عنه ، اذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا ، ولن يرضوا عنا ابدا الا ان نقول مثل قولهم وعياذا بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء الناس — الذين ينتسبون للاسلام — لعلموا ان بضعة ايد من ايدى السارقين ، لو قطعت كل عام ، لنجت البلاد من سبة اللصوص ، لما وقع كل عام الا بضع سرقات ، كالشىء النادر ، ولخلت السجون من مئات الألوف التى تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن فى الجرائم ، لو عقلوا لفعلوا ، ولكنهم يصرون على باطلهم ، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم وهيهات)[٦٣]

٤ —ومن فتاوى العلماء المسلمين حول بعض الطوائف المرتدة عن دين الاسلام.انقل لك جواب ابن تيمية رحمه الله تعالى على سؤال عن طائفة من هذه الطوائف تسمى (النصيرية) فقال : (الحمد لله رب العالمين : هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر اصناف القرامطة الباطنية اكفر من اليهود والنصارى ، بل وأكفر من كثير من المشركين ، وضررهم على امة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والافرنج وغيرهم ، فان هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ، ولا بأمر ولانهى ، ولا ثواب ولاعقاب ، ولا جنة ولا نار ، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة ، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء

(٦١) المائدة — الآية ٣٨ (٦٢) المائدة — الآية ٣٨ (٦٣) عمدة التفسير ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧

المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها ، يدعون انها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الالحاد فى أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه ....) الى ان قال : (ومن المعلوم عندنا ان السواحل الشامية انما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ، فهم مع النصارى على المسلمين ، ومن اعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ، ومن أعظم اعيادهم اذا استولى والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين .. فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل ، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره ، فان احوالهم كانت من اعظم الاسباب فى ذلك ، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين فى سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين ، واتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى ، وممن كان بها منهم ، وفتحوا ايضا أرض مصر ، فانهم كانوا مستولين عليها نحو مائتى سنة ، واتفقوا هم والنصارى ، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد ...

ثم ان التتار ما دخلوا بلاد الاسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين الا بمعاونتهم ومؤازرتهم ..

ولهم القاب معروفة عند المسلمين ، تارة يسمون (الملاحدة) وتارة يسمون (القرامطة) وتارة يسمون (الباطنية) وتارة يسمون (الاسماعيلية) وتارة يسمون (الخرمية) وتارة يسمون (المحمرة) وهذه الاسماء منها مايعمهم ، ومنها ما يخص بعض اصنافهم .... ولا ريب ان جهاد هؤلاء واقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات ، وهو افضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، فان جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين ، والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب ... وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر اولئك ... ويجب على كل مسلم ان يقوم فى ذلك بحسب مايقدر عليه من الواجب فلا يحل لاحد ان يكتم ما يعرفه عن اخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ، ولا يحل لاحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به ورسوله ..... والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الامكان له من الاجر والثواب مالا يعلمه الا الله تعالى) (٦٤)

الاحتياط فى تكفير المعينين :

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية :

(ان الاقوال الباطلة المبتدعة المحرفة المتضمنة نفى ما أثبته الرسول ، أو اثبات مانفاه ، أو الامر بما نهى عنه ، أو النهى عما أمر به ، يقال فيها الحق ، ويثبت لها الوعيد الذى دلت عليه النصوص ، ويبين انها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ونحو ذلك .. واما الشخص المعين اذا قيل : هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافرا ؟ فهذا لا نشهد عليه الا بأمر تجوز معه الشهادة ، فانه من اعظم البغى ان يشهد

(٦٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية - المجلد ٢٥ ص ١٤٩ وما بعدها

على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه ، بل ويخلده فى النار ، فان هذا حكم الكافر بعد الموت(٦٥) ولان الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهدا مخطئا مغفورا ، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ماوراء ذلك من النصوص ويمكن ان يكون له ايمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذى قال (اذا مت فاسحقونى ثم أذرونى) ثم غفر الله له لخشيته(٦٦)

لكن هذا التوقف فى أمر الآخرة لايمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا ، لمنع بدعته ، وان نستتيبه ، فان تاب والا قتلناه ، ثم اذا كان القول فى نفسه كفرا : قيل انه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ....)(٦٧)

يتضح لك من هذا الكلام انه ينبغى الاحتياط فى تكفير الاشخاص المعينين ، وهنا امور هامة ينبغى اخذها بعين الاعتبار عند الكلام عن نواقض الاسلام :

الاول : إن هنالك امورا كثيرة تتناقض مع الشهادتين ، اما لمنافاتها للايمان بالله وأما لمناقضتها للايمان برسول الله ﷺ وما جاء به ، فيجب على كل من يعلمها ويعلم مايدل عليها من النصوص ان ينبه عليها ، ويحذر منها ، ويفصل انواعها ، وضوابطها بقدر ما أوتى من العلم ، ويبين أدلتها من القرآن والسنة ، فهذا من بيان الدين والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والفاعل ذلك له أجره عند ربه ان أخلص النية

الامر الثانى : ان هذه الامور المكفرة تختلف فى قوة دلالتها على الكفر ، فمنها ما يدل عليه بصريح العبارة لا بما يلزم منه ، ومنها مايدل على الكفر ما يلزم منه لا بصريح العبارة ، وهذا النوع الثانى منه مايكون لازمة قريبا ومفهوما بأدنى تأمل ، ومنه مايكون أبعد من ذلك .

فمن وقع فى النوع الاول امكن الشهادة عليه بالكفر ، ولايعذر فيه أحد الا المكره بالمعنى المتقدم ، وفى حدود التلفظ به باللسان دون الاعتقاد به ، وكذلك ما يقترب منه من النوع الثانى ، كمن يدعى انه اله فانه يستلزم الشريك لله تعالى ، وان لم ينف الالوهية عن الله تعالى ، ومثله من يدعى احدى خصائص الالوهية كحق التحليل والتحريم للعباد .

وكمن يقول بقدم العالم ، فانه يلزم منه القول بان الله لم يخلق ، ولا تأويل له غير ذلك ، فهو فى قوته كالكفر الصريح ، ولا يعذر قائله ، وكمن يصدر عنه الرضا الصريح بالكفر كمن يقول لمن انكر وجود الله : صدقت ، أو انك على حق ، فهذا لايقل فى دلالته على الكفر من قول المنكر نفسه ، وقد يكون سبب القوة كثرة صدور افعال الكفر واقواله من شخص معين واقامته عليها ، ومن هذا اقامة الشخص على موالاة الكفار وكثرة حصول افعالها منه ، فان من المستحيل عرفا قيام عذر لشخص يقيم طوال حياته أو معظمها على افعال واقوال تستلزم الكفر او الرضى به

ومن وقع فيما يؤدى الى الكفر عن طريق النظر الى مايلزم منه ، فهذا الذى ينبغى الاحتياط فيه عند تطبيقه على شخص معين ، وتزداد الحاجة الى الاحتياط كلما كان اللازم بعيدا عن الامر الذى صدر من ذلك الشخص المعين

(٦٥) يقصد ان ذلك من اختصاص الله سبحانه وليس من اختصاص العباد

(٦٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ٧٢ (٦٧) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٥٧ ، ٣٥٨

وذلك بأن ينظر الى الظروف والقرائن الظاهرة القوية الدلالة[٦٨]

وهذا الامر لايتأتى فى الواقع لعامة الناس وانما يقدر عليه من ملك وسائل الحكم والقضاء فى الدولة الاسلامية .

ونضرب لذلك مثلا : لو ان شخصا القى شيئا من القرآن فى نجاسة فهذا العمل فى حد ذاته وبغض النظر عن الفاعل اجمع الفقهاء على التكفير بسببه لانه يلزم من هذا الفعل تحقير كلام الله والاستخفاف به ، فلو رآه شخص اخر ، فله ان يقول عن هذا العمل انه كفر . ولكن لايستطيع تكفير الشخص المعين الذى فعله حتى يعرف امرين اثنين على الاقل : ان هذا الشخص يعرف ان ما القاه هو القرآن ، ويعرف ان الملقى فيه هو النجاسة ، فاذا علم ذلك كأن أقر بذلك كان له الحكم بالكفر ، ولكن قد يكون الشخص اميا لا يدرى ما القاه ، وقد يكون غير مبصر لايدرى ما ألقاه ولايدرى ما القى فيه وعندئذ تكون هذه قرينة ظاهرة على عدم ارادة التحقير ، ويعذر ذلك الشخص المعين .

ومن هنا وجب الاحتياط فى تكفير فلان أو فلان الا ان يصدر منه الكفر الصريح الذى ليس له تأويل معقول سوى الكفر ، مع وجوب التنبيه على جميع الاقوال والاعمال التى يلزم منها الكفر اذا تحققت شروط وانتفت موانع .

الامر الثالث : ان هنالك حكمين يترتبان على كفر العبد : الاول دنيوى ، وهو استحقاق المرتد فى الدنيا جميع مادلت عليه النصوص الشرعية من الاحكام التى يجب تنفيذها عليه فى هذه الحياة الدنيا ، والتى مبناها على مايصدر عن الانسان فى الظاهر دون النظر الى مكنونات القلوب ، وذلك كاستحقاق المرتد القتل ان لم يتب والتفريق بينه وبين زوجته وعدم حل ذبيحته ولا انكاحه وغير ذلك ، فهذا من اختصاص العباد فى هذه الدنيا ، ويطبقونه على الشخص المعين ، وبعض هذه الاحكام يختص بالامام كالاستتابة والقتل .

والحكم الثانى هو الحكم الاخروى : وهو استحقاق المرتد للخلود فى النار ، فهذا الحكم يختص بأصداره وتنفيذه على فلان وفلان وفلان ، ممن يستحقونه ، احكم الحاكمين سبحانه وتعالى ، ونحن لانقدر عليه فى الحياة الدنيا ، ولا نعلمه بخصوص شخص معين ، وليس من اختصاص العباد اصلا ، فليس لاحد فى هذه الدنيا ان يدعي انه يعرف مقعد شخص معين فى الجنة أو النار ، اللهم الا من أعلمهم الله بذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كمن بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة ، وهم العشرة من الصحابة ، الذين شهد لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة ، وكمن اخبر عنهم الله فى كتابه ، أو شهد الرسول انهم من اهل النار ، كأبى لهب الذى نزل فيه قرآن يدل على ذلك .

نعم لنا ان نحكم بصورة اجمالية ، فنقول : من كفر بالله او ارتد عن دينه خلد فى النار ، وحرمت عليه الجنة ، وهذا هو الحد الذى يجب على المسلم ان يقف عنده ، والا كان باغيا ومعتديا ، كما قال شارح العقيدة الطحاوية فيما تقدم ، وكما قال الطحاوى رحمه الله « ولا ننزل احدا منهم جنة ولا نارا »[٦٩]

(٦٨) اشار الى هذا المعنى ابن حجر الهيثمى فى كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٣٨

(٦٩) العقيدة الطحاوية مع شرحها : ص ٤٢٦

خاتمـــة
فـــى
حـكم أهـــل المعاصـــى

اقتراف المعاصى بمفرده لايخرج من دين الله :

لقد تقدم قول الطحاوى رحمه الله تعالى : (ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله)

ويقول الامام النووى رحمه الله تعالى :(واعلم ان مذهب اهل السنة وما عليه اهل الحق من السلف والخلف ، ان من مات موحدا دخل الجنة قطعا على كل حال ، فان كان سالما من المعاصى كالصغير والمجنون ، والذى اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصى ، اذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذى لم يبتل بمعصية اصلا ، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار اصلا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف فى الورود والصحيح أن المراد به : المرور على الصراط ، وهو منصوب على ظهر جهنم ، أعاذنا الله منها ، ومن سائر المكروه ، وأما من كانت له معصية ، ومات من غير توبة ، فهو فى مشيئة الله تعال فان شاء تعالى عفا عنه، وأدخله الجنة أولا وجعله كالقسم الاول ، وان شاء عذبه القدر الذى يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد فى النار احد مات على التوحيد ، ولو عمل من المعاصى ماعمل ، كما انه لايدخل الجنة احد مات على الكفر ولو عمل من اعمال البر ماعمل ، هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق فى هذه المسئلة ، وقد تظاهرت ادلة اهل الكتاب والسنة واجماع من يعتد به من الامة على هذه القاعدة.وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعى . فاذا تقررت هذه القاعدة حمل عليها جميع ما ورد من احاديث الباب (1)

وغيره . فاذا ورد حديث فى ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ، ليجمع بين نصوص الشرع)(2)

فمن مات على الايمان ، وتشهد مخلصا من قلبه بالشهادتين ، فمآله دخول الجنة وعدم التخليد فى النار مهما ارتكب من المعاصى ، اذا لم يستحلها ، او ينكر امرا معلوما من الدين بالضرورة ، او يقع منه بعض مايؤدى الى نقض الشهادتين مما تقدم تفصيل انواعه ، فمجرد فعل المعصية لايدل على نقض الشهادتين ولا يكون سببا للتخليد فى النار .

ويدل على هذا الاصل احاديث كثيرة ، صرحت بأن الجنة هى مصير كل من شهد الشهادتين ، مخلصا مصدقا بقلبه لما يدلان عليه من التوحيد ، وتصديق الرسول ﷺ فى كل ماجاء به وبعض هذه الاحاديث صرح بأن المعاصى والكبائر وحدها لاتمنع من دخول الجنة فى المآل ، وان عذب المؤمن بسببها، ومن هذه الاحاديث :

(1) وهو الباب الذى عنون له النووى بقوله (باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا)

(2) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ٢١٧ ، وذكر مثل هذا فى نفس الجزء ص ٢٢٠.

وانظر ايضا : كلاما مشابها لابن تيمية فى الفرقان من مجموعة التوحيد ص ٥٦ ، ٥٠٧

١ –عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(من مات وهو يعلم انه لا اله الا الله دخل الجنة)[٣]

٢ –وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما الا دخل الجنة)[٤]

٣ –وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من قال : اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله وان عيسى عبد الله وابن امته وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه ، وان الجنة حق ، وان النار حق ، ادخله الله من أى ابواب الجنة الثمانية شاء) وفى روايه : (ادخله الجنة على ماكان من عمل)[٥]

٤ –وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول : ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا[٦]

٥ –وقال رسول الله ﷺ(يدخل اهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى: اخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان)[٧]

٦ –وعن المعرور بن سويد قال : سمعت ابا ذر يحدث عن النبى ﷺ انه قال (أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى انه من مات من امتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وان زنى وإن سرق قال : وان زنى وان سرق)[٨]

قال الامام النووى فى شرح هذا الحديث : (وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار ، ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد اجمع عليه المسلمون فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند اهل الحق بين الكافر عنادا وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام ، وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك ، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به ، لكن ان لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها دخل الجنة أولا ، وان كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة ، فان عفى عنه دخل اولا، والا عذب ثم اخرج من النار وخلد فى الجنة ... واما قوله ﷺ (وانى زنى وان سرق) فهو حجة

(٣) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ١ ص ٢١٨

(٤) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ١ ص ٢٢٤.

(٥) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ١ ص ٢٢٧ . واخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الانبياء

(٦) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ٢ ص ٢

(٧) متفق عليه واللفظ للبخارى – انظر صحيح البخارى ج١ ص ٦١ وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٣٦ .

(٨) متفق عليه واللفظ لمسم ج ٣ ص ٩٤ ، وانظر صحيح البخارى فى كتاب الجنائز .

لمذهب اهل السنة ان اصحاب الكبائر لايقطع لهم بالنار وانهم وان دخلوها اخرجوا منها وختم لهم بالخلود فى الجنة)[9]

وأما الاحاديث التى اشار اليها النووى فيما تقدم بقوله (فاذا ورد حديث فى ظاهره مخالفة – اى للقاعدة السابقة – وجب تأويله عليها، ليجمع بين نصوص الشرع)فهى عدة انواع : نوع منها ظاهره نفى الايمان عمن ارتكب بعض المعاصى ، ونوع فيه البراءة من النبى ﷺ لمن ارتكب بعض المعاصى ، ونوع فيه تسمية لبعض المعاصى كفرا وشركا[10] ونذكر لك من هذه الاحاديث مايلى :

١ – قوله ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[11]
٢ – وقوله ﷺ (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)[12]
٣ – وقوله (من حلف بغير الله فقد اشرك)[13]
٤ – وقوله (اثنتان من الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب والنياحة على الميت)[14]
٥ – وقوله : (لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد)[15]
٦ – وقوله : (من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا)[16]
٧ – وقوله عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية)[17]

ولهذه الاحاديث نظائر اخرى ، ولم يحملها على ظاهرها الا طائفة الخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة .

(٩) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧

(١٠) رسالة الايمان لابى عبيد القاسم بن سلام مطبوعة مع رسائل اخرى ص ٨٤

(١١) متفق عليه – انظر : صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ ص ٩٦. وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٥٤

(١٢) متفق عليه – انظر : صحيح البخارى مع فتح البارى ج ١ ص ١٧٥ . وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٥٥.

(١٣) اخرجه احمد والترمذى والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر . انظر : الفتح الربانى ج ١٤ ص ١٦٤–١٦٦ وصحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ٣ ص ١٨ والمستدرك ج ١. ص ١٨

(١٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٥٧

(١٥) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح البخارى فى كتاب الاشربة . وصحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٤٥

(١٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ١٠٨

(١٧) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح البخارى فى كتاب الجنائز. وصحيح مسلم بشرح النووى . ج ٢ ص ١٠٩

وأما أهل السنة فموقفهم منها جميعها تأويلها بما يتفق مع القاعدة السابقة .

وهذا الموقف هو القدر المشترك بينهم ، ولكن اختلفت مذاهبهم فى التأويل : فمنهم من أولها بأن المقصود بها كفر النعمة ، وليس الكفر المخرج من الدين ، ومنهم من اولها بأنها محمولة على التغليظ والترهيب ، ومنهم من أولها بأن المقصود إستحلال ماذكر فيها من المعاصى ، وأبقى الكفر المنسوب الى اهلها،على حقيقته ، فمن استحل شيئا مما ذكرته تلك الاحاديث كان كافرا مرتدا ، ومنهم من نحى منحى اخر ، فأول كل حديث تأويلا متفقا مع القاعدة السابقة المقررة عند اهل السنة (وهى أن أهل الكبائر لايخلدون فى النار) فلم يلتزم هؤلاء تأويلا عاما شاملا لجميع هذه الاحاديث ، ومنهم من أولها بأن المقصود بها بيان الاعمال والاقوال التى هى من ثمرات الكفر لا من ثمرات الايمان ، وأن الايمان لايقتضيها ، وانما يقتضى البعد عنها[18]

يقول الامام ابو عبيد القاسم بن سلام ، رحمه الله تعالى بعد أن ذكر بعض التأويلات السابقة ، وضعفها : (وان الذى عندنا فى هذا الباب كله ان المعاصى والذنوب لا تزيل ايمانا وتوجب كفرا ، ولكنها انما تنفى من الايمان حقيقته واخلاصه الذى نعت الله به اهله ، واشترطه عليهم فى مواضع من كتابه ، فقال سبحانه « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله » الى قوله تعالى « التائبون العابدون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين »[19] وقال : « قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الى قوله تعالى « والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »[20] وقال « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »[21]

(١٨) انظر تفصيل بعض هذه التأويلات فى رسالة الايمان لابى عبيد القاسم بن سلام مع عدة رسائل ص ٨٤ وما بعدها .

(١٩) التوبة – الآيتان ١١١ – ١١٢ .

(٢٠) المؤمنون – الآيات ١ – ١١

(٢١) الانفال – الآيات ٣ – ٤

قال أبو عبيد : فهذه الآيات التى شرحت وأبانت شرائعه المفروضة على أهله ، ونفت عنه المعاصى كلها ، ثم فسرته السنة بالاحاديث التى فيها خلال الايمان .فلما خالطت هذه المعاصى هذا الايمان المنعوت بغيرها . قيل : ليس هذا من الشرائط التى اخذها الله على المؤمنين ولا الامارات التى يعرف بها أهل الايمان ، فنفت عنهم حينئذ حقيقته (٢٢) ولم يزل عنهم اسمه . فان قال قائل : كيف يجوز ان يقال : ليس بمؤمن . واسم الايمان غير زائل عنه ؟ قيل : هذا كلام العرب المستفيض عندنا . غير المستنكر فى ازالة العمل عن عامله اذا كان عمله على غير حقيقته . الا ترى انهم يقولون للصانع اذا كان ليس بمحكم لعمله : ما صنعت شيئا ولا عملت عملا . وانما وقع معناها هنا على نفى التجويد ، لا على الصنعة نفسها ، فهو عندهم عامل بالاسم ، وغير عامل فى الاتقان حتى تكلموا به فيما هو أكثر من هذا ، وذلك كرجل يعق أباه ، ويبلغ منه الأذى ، فيقال ماهو بولد ، وهم يعلمون انه ابن صلبه ، ثم يقال مثله فى الأخ والزوجة .. ثم قال أبو عبيد : وكذلك الاحاديث التى فيها البراءة ، فهى مثل قوله : من فعل كذا وكذا فليس منا ، لا ترى شيئا يكون معناه التبرؤ من رسول الله ﷺ ، ولا من ملته . انما مذهبه عندنا انه ليس من المطيعين لنا ، ولا من المقتدين بنا ، ولا من المحافظين على شرائعنا ...

وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصى ، فان معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفرا ولا شركا يزيلان الايمان عن صاحبه . انما وجوهها انها من الاخلاق والسنن التى عليها الكفار والمشركون) (٢٣)

والواقع أن هناك عدة أدلة وقرائن شرعية قاطعة تقتضى تأويل تلك الأخبار ، منها :

أولا : تلك الاحاديث المستفيضة التى تدل على أن أهل الكبائر والمعاصى لا يخلدون فى النار ، وانما يؤول أمرهم الى الجنة ، أما بعد عذاب مؤقت فى النار ، وأما بعد عفو ومغفرة من الله الغفور الرحيم . وقد قدمنا لك بعض هذه الاحاديث . وقد اشير فى بعضها الى كبائر هى أشد فى حقيقتها من بعض الاعمال التى وقع تسميتها بالكفر فى بعض الاحاديث : فان الزنا والسرقة أشد من سباب المسلم ومن الطيرة . ومن النياحة على الميت التى سميت كفرا.

ثانيا : ان تلك الامور التى وصفت بالكفر فى بعض الاحاديث ، لو كانت سببا للردة والخروج من دين الله عز وجل ، لكان حكمها فى الدنيا هو الحكم الذى أجمع عليه المسلمون ، والذى نص عليه رسول الله ﷺ فى قوله في الحديث الصحيح

(٢٢) يقصد : اخلاصه وصفاءه ، أى حقيقته التى لم تختلط بشىء من المعاصى

(٢٣) انظر : رسالة الايمان لابى عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩ وما بعدها

(من بدل دينه فاقتلوه)[٢٤] وكذلك وجدنا الله سبحانه وتعالى حكم فى السارق بقطع اليد ، وفى الزانى والقاذف بالجلد ، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء الا القتل ، فلو كانوا كفارا لما كانت عقوباتهم القطع والجلد ولما قبل عفو ولى المقتول عن القاتل لان المرتد لا يقبل فيه العفو من احد فى الدنيا ، ونصوص الكتاب والسنة والاجماع تدل على ان الزانى والسارق والقاذف لايقتلون ، بل يقام عليهم الحدود فدل ذلك على انهم ليسوا مرتدين[٢٥]

ثالثا : اننا نجد فى القرآن نصوصا جعل الله سبحانه فيها مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، وثبت له صفة الايمان ، وأخوة الايمان[٢٦] فقد قال تعالى :(**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى**) الى ان قال سبحانه (**فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف**)[٢٧] فلم يخرج سبحانه القاتل من الذين آمنوا وجعله اخا لولى القصاص ، والمراد اخوة الدين بلا ريب[٢٨]

وكذلك قال تعالى (**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**)الى ان قال (**انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم**)[٢٩]

اهل السنة يثبتون للمعاصى عقوبتها المنصوص عليها :

واذا كان اهل السنة يقررون بأن المعاصى من كبائر وذنوب لاتوقع صاحبها فى الردة ، ان لم تقترن بسبب من أسباب الكفر ، فانهم لايقولون : لايضر مع الايمان معصية ، وهو ماقالته فرقة تسمة (**المرجئة**) فانهم ادعوا ان الذنب لايضر صاحبه ابدا مادام مؤمنا ، وهذا قول مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد اخبر الشارع عن العقوبات الاخروية لكثير من المحرمات والمعاصى .

وأما اهل السنة فيرون ان فعل المعاصى يترتب عليه العذاب والعقاب الذى توعد الله به على فعلها ، فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ وأنها تؤثرعلى الايمان ، من حيث زيادته ونقصه ، لا من حيث بقاؤه وذهابه ، بل قد يؤدى الاكثار من مقارفة المعاصى الى الوقوع فى الكفر والردة ، بانكار بعض ماجاء به الرسول ﷺ . لتبرير مقتضيات الهوى والشهوة ، ولأن اتباع الشهوات واقتراف الذنوب والمعاصى يميت القلب اذا كثر ، فيغدو يؤول ويبرر لصاحبه كل مايفعله ، حتى يوقعه فى استحلال المعاصى ، فيؤدى بصاحبه الى الكفر ، **والعياذ** بالله .

وشبهة (**المرجئة**) انها حملت ظواهر النصوص المتقدمة الدالة على ان من مات على التوحيد دخل الجنة ، كقوله ﷺ (من مات وهو يعلم انه لا اله الا الله دخل الجنة)[٣٠] فظنوا ان دخوله الجنة

(٢٤) اخرجه البخارى عن ابن عباس فى كتاب الجهاد

(٢٥) انظر سالة الايمان لابى عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦١

(٢٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦١. العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ، ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٢٧) البقرة – الاية ١٧٨

(٢٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦١

(٢٩) الحجرات . الايتان ٩ ، ١٠

(٣٠) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ١ ص ٢١٨

يقتضى عدم عذابه ولكن لا تلازم بينهما ، فقد يعذب المؤمن العاصى بما شاء الله ان يعذب ، ثم يدخله الجنة فى المآل[٣١] وربما تمسكوا بقوله تعالى (**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات**)[٣٢]

والحق ان هذه الآية نزلت فى حق من مات من الصحابة رضوان الله عليهم ، قبل تحريم الخمر ، حيث لم يكونوا مكلفين باجتنابها قبل تحريمها ، ويدل على ذلك ماورد فى سبب نزولها ، فقد ورد ان قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى (**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعلموا الصالحات**) فلما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اتفق هو وعلى بن أبى طالب وسائر الصحابة على انهم ان اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وان اصروا على استحلالها قتلوا ، وقال عمر لقدامة : أما انك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر ، وذلك ان هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد وقعة احد ، قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ما توا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله هذه الآية وبين فيها ان من طعم الشيء فى الحال التى لم يحرم فيها فلا جناح عليه اذا كان من المؤمنين المتقين الصالحين[٣٣]

الكبـــائر :

ذلك هو حكم المعاصى جميعا ، صغيرة كانت أم كبيرة : حذر الله ورسوله ﷺ من الوقوع فيها ، فيجب على المؤمن أن يتزود دائما بتقوى الله ، ويكثر من هذا الزاد ، ويجتنب محارم الله ، ويقف عند حدوده ، ولا يتساهل فيقول : هذه صغيرة فان الله سبحانه وتعال يقول (**من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا**)[٣٤] وقال رسول الله ﷺ : ان المذنب اذا اذنب نكتت نكتة سوداء فى قلبه ، فان تاب واستغفر صقل قلبه ، وان لم يتب زادت حتى تعلو قلبه)[٣٥] اى تغشيه وتغطيه تلك النكتة السوداء ، وهذا هو الران الذى ذكره الله تبارك وتعالى فى كتابه فقال : (**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**)[٣٦]

وقد قال بعض العلماء : لاتنظر الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر من عصيت ، وقال الحسن البصرى : ترك الخطيئة ايسر من طلب التوبة[٣٧] ويؤيده قول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[٣٨] فانظر كيف اتى عليه الصلاة والسلام بالاستطاعة فى جانب المأمورات ولم يأت بها فى جانب المنهيات اشارة الى عظيم خطرها ، وقبيح وقعها ،

(٣١) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ٢١٩ (٣٢) المائدة - الاية ٩٣

(٣٣) انظر : تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٩٣ . وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ (٣٤) النساء . الاية ١٢٣

(٣٥) رواه ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجد - انظر ، صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ١٢ ص ٢٣٤ . وقد قال عنه الترمذى حسن صحيح . وسنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤١٨

(٣٦) المطففين - الاية ١٤ (٣٧) الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ١٢

(٣٨) اخرجه البخارى ومسلم : فتح البارى ج ١٧ ص ٢١ مطبعة الحلبى . وصحيح مسلم . شرح النووى ج ٥ ص ١٩

وانه يجب بذل الجهد واستفراغ الوسع فى الابتعاد عنها ، قال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر مايعظم عندك يصغر عند الله وقال السلف : المعاصى بريد الكفر[٣٩] ذلك ان كثرتها تقسى القلب فيخرج منه كل خير ، فيرتكب ما أراد ، ويفعل ما أحب ، فيتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فيضله ويغويه ويصده ولا يرضى منه بأقل من الكفر ماوجد اليه سبيلا .

ومع هذا فانه لا يشك ان الله سبحانه وتعالى قد شدد على بعض المعاصى ، وتوعد عليها وهدد من يفعلها بأشد العقاب ، وكذلك الرسول ﷺ أخبر عن بعض المعاصى انها من الموبقات ، اى . المهلكات ، وذكر شيئا منها فى عدد من الاحاديث الصحيحة وسماها الكبائر ، من هذه الاحاديث :

١ – عن عبد الرحمن بن ابى بكرة عن ابيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : الا انبأكم بأكبر الكبائر(ثلاثا) الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور أو قول الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[٤٠]

٢ – وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال (اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يارسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات)[٤١]

٣ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يارسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب ابا الرجل ، فيسب الرجل اباه ، ويسب امه ، فيسب امه)[٤٢]

وهنالك احاديث اخرى فيها ذكر بعض المعاصى ، وتسميتها بالكبائر ، والواقع انه ليس فى الاحاديث حصر لها فى عدد مذكور[٤٣] ولعل عدم حصرها فى عدد معين مقصود لحكمة حث المؤمنين على اجتناب المعاصى كلها ، خشية ان يكون بعض مايرتكبه العبد من الكبائر ، ومع هذا فقد ذهب جماهير السلف والخلف الى انقسا م المعاصى الى صغائر وكبائر ، ولا شك أن فى كل معصية مخالفة لله تعالى فى أمره أو نهيه ، ومخالفة الله عز وجل قبيحة جدا بالنسبة لجلال الله تعالى ، ولكن بعض المعاصى اخف من بعض

تعريف الكبيرة ومعيارها :

هذا وقد اختلفت عبارات العلماء فى تعريف الكبيرة ، وتمييزها عن الصغيرة[٤٤] ولكن كثيرا

(٣٩) الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ١٢

(٤٠) صحيح مسلم مع شرح النووى ج ٢ ص ٨١ . ٨٢ واخرج البخارى نحوه عن انس فى كتاب الديات .

(٤١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٨٢ . ٨٣ . واخرجه البخارى فى كتاب الوصايا .

(٤٢) متفق عليه واللفظ لمسلم : انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٨٢ . ٨٣

(٤٣) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٤

(٤٤) انظر اقوالهم فى كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٤ وما بعدها . وشرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ٨٥ وما بعدها.

منهم يرجع ان الكبيرة هى كل معصية يترتب عليها حد او توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب ، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن البصرى رحمه الله تعالى [٤٥] وقال أبو حامد الغزالى رحمه الله : ان كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذار وندم ، كالمتهاون بارتكابها والمتجرىء عليها اعتياديا ، فما اشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة ، وما يحمل على فلتات اللسان والنفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عن تندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية ، فهذا لايمنع العدالة ، وليس بكبيرة [٤٦]

ومن المستحسن فى هذا المقام ان نثبت للاخ القارىء كلاما حسنا معقولا فى التمييز بين الصغيرة والكبيرة للامام الشيخ العز بن عبد السلام فى كتابه (القواعد) فقد قال :

(اذا اردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها ، وان ساوت ادنى مفاسد الكبائر ، أو أربت عليها ، فهى من الكبائر ، فمن شتم الرب أو الرسول ﷺ او استهان بالرسل أو كذب واحدا منهم .. أو القى المصحف فى القاذورات فهذا من اكبر الكبائر ، ولم يصرح الشرع بأنها كبيرة ، وكذلك لو امسك امرأة محصنة لمن يزنى بها ، أو مسلما لمن يقتله ، فلا شك ان مفسدة ذلك من أعظم مفسدة أكل مال اليتيم مع كونه من الكبائر ، وكذلك لو دل الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته ، ويسبون حرمهم وأطفالهم ويغتنمون اموالهم ويزنون بنسائهم ويخربون ديارهم ، فان تسببه الى هذه المفاسد اعظم من توليته يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر ، فان وقعا فى مال خطير فهذا ظاهر ، وان وقعا فى مال حقير ، فيجوز ان يجعل من الكبائر فطاما عن هذه المفاسد ، كما جعل شرب قطرة من الخمر من جملة الكبائر ، وان لم يتحقق المفسدة فيه ، والوقوف على تساوى المفاسد وتفاوتها عزة ولا يهتدى اليها الا من وفقه الله تعالى ، والوقوف على التساوى اعز من الوقوف على التفاوت ، ولا يمكن ضبط المصالح والمفاسد الا بالتقريب [٤٧] ثم قال : (وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأن قال : كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر ... فقتل المؤمن كبيرة ، لانه اقترن به الوعيد واللعن ، والمحاربة والزنا والسرقة والقذف كبائر ، لا قتران الحدود بها ، وعلى هذا كل ذنب علم ان مفسدته كمفسدة ما قرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو اكبر من مفسدته فهو كبيرة) [٤٨]

(٤٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٨ وشرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٥

(٤٦) نقله عن الغزالى النووى فى شرحه على صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٥

(٤٧) قواعد الاحكام ج ١ ص ٢٣ . ٢٤

(٤٨) المرجع السابق

ذكــر بعض الكبائر :

ومن هنا تعلم أيها الاخ القارىء أن ماذكره العلماء من ضوابط للتمييز بين الصغائر والكبائر ان هو الا على وجه التقريب ، وتعلم ان النصوص وردت بالتعريف ببعض الكبائر ، واخرى عرفت الصغائر ، وهناك انواع اخرى من المعاصي مشتملة على صغائر وكبائر ، فواجبك ان تجتهد في اجتنابُ كل معصية ، وان تبذل كل جهد في توقي مانص الشارع على انه كبيرة ، وتضاعف جهدك في ذلك ، وكذلك فيما رجح العلماء انه منها ، ولا تستصغرن معصية مهما كانت ، ولا تتهاون فيها ، ولا تصرن على ذنب مهما كان صغيرا ، فان العلماء نصوا على ان الاصرار على الصغيرة بمثابة ارتكاب الكبيرة ، وحد الاصرار ان يتكرر فعل الصغيرة تكرارا يشعر بقلة مبالاة الشخص بدينه[٤٩] وكذلك الاكثار من فعل الصغائر ولو كانت مختلفة لا يقل عن ارتكاب كبيرة من الكبائر ، لان هذا الاكثار من فعل الصغائر يدل على عدم المبالاة بالدين ، وعلى استصغار مخالفة الرب عز وجل .

وفي هذا المقام اذكر جملة من الكبائر التي ذكرها ابن حجر الهيثمي في كتابه القيم (الزواجر عن اقتراف الكبائر) فمنها :

الشرك الاكبر اعاذنا الله منه ، والشرك الاصغر وهو الرياء والغضب بالباطل والحقد والحسد ، والكبر والعجب والخيلاء ، والغش ، والنفاق ، والبغي ، والاعراض عن الخلق استكبارا واحتقارا لهم ، والطمع ، وسخط المقدور ، والنظر الى الاغنياء وتعظيمهم لغناهم ، والاستهزاء بالفقراء لفقرهم ، والتنافس في الدنيا ، والمباهاة بها ، والتزين للمخلوق بما يحرم التزين به ، والمداهنة ، وحب المدح بما لايفعله ، والحمية لغير دين الله ، وهوان حقوق الله تعالى وأوامره على الانسان ، واتباع الهوى والاعراض عن الحق ، وسوء الظن بالمسلم ، وعدم قبول الحق اذا جاء بما لاتهواه الانفس ، أو جاء على يد من تكرهه ، وفرح العبد بالمعصية ، والاصرار عليها ، ونسيان الله تعالى والدار الآخرة ، والأمن من مكر الله ، والاسترسال في المعاصي ، وسوء الظن بالله تعالى والقنوط من رحمته ، وتعلم العلم للدنيا ، وكتم العلم ، وعدم العمل بالعلم ، وتعمد الكذب على الله تعالى أو على رسوله ﷺ ، وسن السنة السيئة في الناس وترك السنة النبوية ، وعدم الوفاء بالعهد ، ومحبة الظلمة والفسقة ، وبغض الصالحين ، وأذيتهم ، والكلمة التي تعظم مفسدتها ، وينتشر ضررها مما يسخط الله ، وترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع ذكره بسبب اشتغال بلهو محرم ، والرضا بالكبيرة والاعانة عليها ، وملازمة الشر والفحش حتى يخشاه الناس ، ونسيان القرآن ، والجدل والمراء وهو المخاصمة والمحاججة وطلب القهر والغلبة في القرآن أو الدين ، وعدم التنزه من البول في البدن أو الثوب ، وكشف العورة لغير ضرورة ، ووطء الحائض ، وتعمد ترك الصلاة وتعمد تأخير الصلاة عن وقتها ، أو تقديمها عليه من غير عذر كسفر أو مرض وأمامة الانسان لقوم يعلم انهم كارهون لامامته وقطع الصف في الصلاة ، وعدمَ تسويته ، ومسابقة الامام ، واتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها واستلامها ، وسفر المرأة وحدها ، وترك

(٤٩) قواعد الاحكام ج ١ ص ٣٧

السفر أو الرجوع منه تشائما وتطيرا ، وترك صلاة الجماعة مع الجماعة من غير عذر ، وتخطى الرقاب يوم الجمعة ،

ولبس الرجل للحرير الخالص بغير عذر شرعى ، وتحليه بالذهب أو الفضة فى غير الخاتم ، وتشبه الرجال بالنساء فيما يختص به عرفا من لباس أو كلام أو حركة أو نحوها ، وكذلك عكسه أى تشبه النساء بالرجال ، والخيلاءوالتبختر فى المشى ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب والنياحة ، والدعاء بالويل ، او الثبور عند وقوع المصيبة ، وترك الزكاة ، وتأخيرها بعد وجوبها لغير عذر شرعى ، وشح الدائن على مدينه المعسر مع علمه باعساره ، والمن بالصدقة ، ومنع فضل الماء عن المحتاج والمضطر ، وترك صوم يوم من أيام رمضان ، والافطار فيه بغير عذر من سفر أو مرض ، وتأخير قضاء ما تعدى بفطره من رمضان ، وصوم العيدين وأيام التشريق ، وترك الحج مع القدرة عليه الى الموت ، وشرب المسكر أو اكله مهما كان خمرا أو حشيشة أو افيونا ، وأكل لحم الخنزير أو الميته ، وأكل الربا أو اطعامه وكتابته وشهادته ، والسعى فيه والاعانة عليه ، وأكل المال بالبيوعات الفاسدة وسائر وجوه الكسب المحرم ، والاحتكار والغش فى البيع ، وانفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وتطفيف الميزان ونحوه ، ومطل الغنى بعد المطالبة من غير عذر ، وأكل مال اليتيم ، وانفاق المال فى المحرمات ، والبناء فوق الحاجة للخيلاء ، وخيانة الشريك والوكيل ، والغصب وهو الاستيلاء على مال الغير ظلما ، وتأخير أجر الاجير ، أو منعه منه بعد اتمام عمله ، والاستيلاء على مال مباح ومنعه ابن السبيل ، وجحد الامانات كالوديعة ، والعين المرهونة أو المستأجرة ، وغير ذلك .

وقد ذكر ابن حجر غير هذه الامور ، فيحسن الاطلاع على كتابه [٥٠]

اسباب سقوط العقوبة عن العصاة :

واذا وقع العبد المؤمن فى المعصية فان الله سبحانه وتعالى قد فتح لعباده ابواب رحمته للخلاص ، من عقوبة ما يقعون فيه ، اذا اخلصوا واتقوا .

هذا وقد استقرأ بعض العلماء الاسباب التى تسقط العقوبة عن المعاصى فى نصوص القرآن والسنة ، ونلخص للاخ القارىء ما خلص اليه شارح العقيدة الطحاوية فى هذا الموضوع [٥١] فقد قال (ان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة اسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة) ثم نذكر منها مايلى :

السبب الاول : التوبة ، فقد قال تعالى (**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، الا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا**) [٥٢] وقال ايضا (**الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم**) [٥٣]

(٥٠) انظر : كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر : الجزء الاول والثانى وممن صنف فى الكبائر. وذكر اقسامها وادلتها الامام الذهبى فى كتاب الكبائر. والشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتاب الكبائر ايضا.

(٥١) انظر ذلك بالتفصيل فى شرح العقيد الطحاوية ص ٢٩٧-٢٧١. ص ٥١١-٥١٧

(٥٢) مريم - الاية ٦٠

(٥٣) البقرة . الآيتان ٥٩ ، ٦٠

والتوبة التى تسقط العقوبة هى التوبة النصوح ، وهى الخالصة النابعة من القلب ، لا المقتصرة على النطق باللسان ، وهى مايصحبها الندم على مافات من المعاصى ، والعزم على عدم العودة اليها ، وعمل الصالحات .

وكون التوبة سببا لغفران الذنوب ، وعدم المؤاخذة بها مما لاخلاف فيه بين الامة ، وليس شىء يكون سببا لغفران جميع الذنوب الا التوبة قال تعالى (**قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، وهو الغفور الرحيم**)(٥٤)

السبب الثانى : الاستغفار ، فقد قال تعالى (**وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**)(٥٥) والواقع ان الاستغفار يدخل فى معنى التوبة ، فان الاستغفار طلب مغفرة الذنوب التى وقع فيها العبد ، وهو مايدخل فى الندم على ما قدم الانسان ، فان طلب المغفرة عنوان هذا الندم ، وتزيد التوبة عن الاستغفار ان فى معناها العزم على اجتناب المعاصى فى المستقبل .

السبب الثالث : فعل الحسنات ، فقد قال سبحانه وتعالى (**ان الحسنات يذهبن السيئات**)(٥٦)

السبب الرابع : الوقوع فى المصائب الدنيوية ، لقوله ﷺ : (مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه)(٥٧)

واعلم ان تكفير الخطايا يكون بسبب وقوع المعصية نفسها ، فاذا صبر المبتلى فاز بثواب جديد فوق تكفير خطاياه ، وان سخط اكتسب اثما جديدا ، ويبقى تكفير خطاياه بوقوع المصيبة .

السبب الخامس : عذاب القبر

السبب السادس : أهوال يوم القيامة وشدائده

السبب السابع : شفاعة من أذن الله لهم بالشفاعة يوم القيامة

السبب الثامن : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)(٥٨)

السبب التاسع : دعاء المؤمنين واستغفارهم فى الحياة وبعد الممات .

السبب العاشر : مايهدى للعبد المؤمن من ثواب صدقة ، أو قراءة ، أو حج أو نحو ذلك ، فقد اتفق أهل السنة على أن الاموات من المؤمنين ينتفعون من سعى الاحياء بأمرين :

الامر الاول : ماتسبب اليه الميت فى حياته ، لما ثبت عن النبى ﷺ انه قال (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده)(٥٩)

(٥٤) الزمر . الاية ٥٣

(٥٥) الانفال . الاية ٣٣

(٥٦) هود . الاية ١١٤

(٥٧) متفق عليه . انظر رياض الصالحين ص ٣١

(٥٨) النساء . الاية ٤٨ والاية ١١٦

(٥٩) اخرجه مسلم فى صحيحه من حديث ابى هريرة . والبخارى فى الادب

الأمر الثانى : دعاء المسلمين واستغفارهم والصدقة والحج ، واختلفوا فى العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر .

فذهب أبو حنيفة واحمد وجمهور السلف الى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعى ومالك عدم وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بأشياء لم يتسبب فيها قوله تعالى : (**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان**) [٦٠] فأثنى سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الاحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء اجماع الامة على الدعاء له فى صلاة الجماعة والادعية التى وردت بها السنة فى صلاة الجنازة مستفيضة ، وكذلك الدعاء له بعد الدفن ، وكان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة رضوان الله عليها اذا خرجوا الى المقابر أن يقولو : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية) [٦١]

ويدل على وصول ثواب الصدقة للميت ماورد فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله أن امي افتلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها اجر ان تصدقت عنها ؟ قال : نعم [٦٢] وقد ورد اكثر من حديث فى هذا المعنى .

ويدل على وصول ثواب الصوم ماورد فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، ان رسول الله ﷺ قال : (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) [٦٣]

ويدل على وصول ثواب الحج مارود فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت الى النبى ﷺ فقال : ان امى نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء) [٦٤]

وهذا لايتناقض مع قوله تعالى (**وان ليس للانسان الا ماسعى**) [٦٥] وقوله (**لها ماكسبت**) [٦٦] وقوله (ولا تجزون الا ماكنتم تعملون) [٦٧] لان الانسان بدخول الاسلام وارتباطه بذلك مع اخوانه المسلمين برباط الاخوة الايمانية وبحسن عشرته واسداء الخير للناس ، وتودده لهم ، يكون ساعيا فى حثهم على الدعاء له بعد مماته ، والاستغفار والترحم عليه ، واهداء ثواب الطاعات له ، فكان هذا الكسب اثرا من آثار سعيه . فالقول بانتفاع الميت بما يهدى اليه من اخوانه لايتعارض مع تلك الآيات الكريمات ، فانها آيات محكمة تقتضى عدل الله تعالى ، وتقتضى ان لايعاقب احد بجرم غيره ، ولا يؤاخذه بجريرة غيره ، كما يفعله ملوك الدنيا ، وتقتضى انه لايفلح احد الا بعمله ، لينقطع طمعه بعمل آبائه وسلفه ومشايخه .

(٦٠) الحشر الاية ١ـ
(٦١) اخرجه مسلم . انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٧ ص ٤٥
(٦٢) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ٧ ص ٨٩
(٦٣) متفق عليه . انظر صحيح البخارى فى كتاب الصوم (باب من مات وعليه صوم)
(٦٤) اخرجه البخارى . انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٤ ص ٥٢
(٦٥) النجم . الاية ٩
(٦٦) البقرة . الاية ٢٨٦
(٦٧) يس الاية ٥٤

الا انه ويجدر بالملاحظة ان هناك بعض العادات والبدع لاتدخل فيما تقدم ، وليس عليها دليل من الشرع ولم يقل بجوازها احد من العلماء ، مثل استئجار قوم يقرأون القرآن ، ويهدونه للميت ، فهذا العمل لم يجزه احد ، وانما اختلف الفقهاء فى جواز الاستئجار على تعليم القرآن ، واما الاستئجار لقراءته واهدائه للميت ، أو الاستئجار لمن يصلى ويصوم ويهدى للميت فهذا لاخلاف فى عدم جوازه ، ولكن الذى يدخل فيما سبق يقتصر على قراءة القرآن واهدائها للميت تطوعا بغير أجرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين